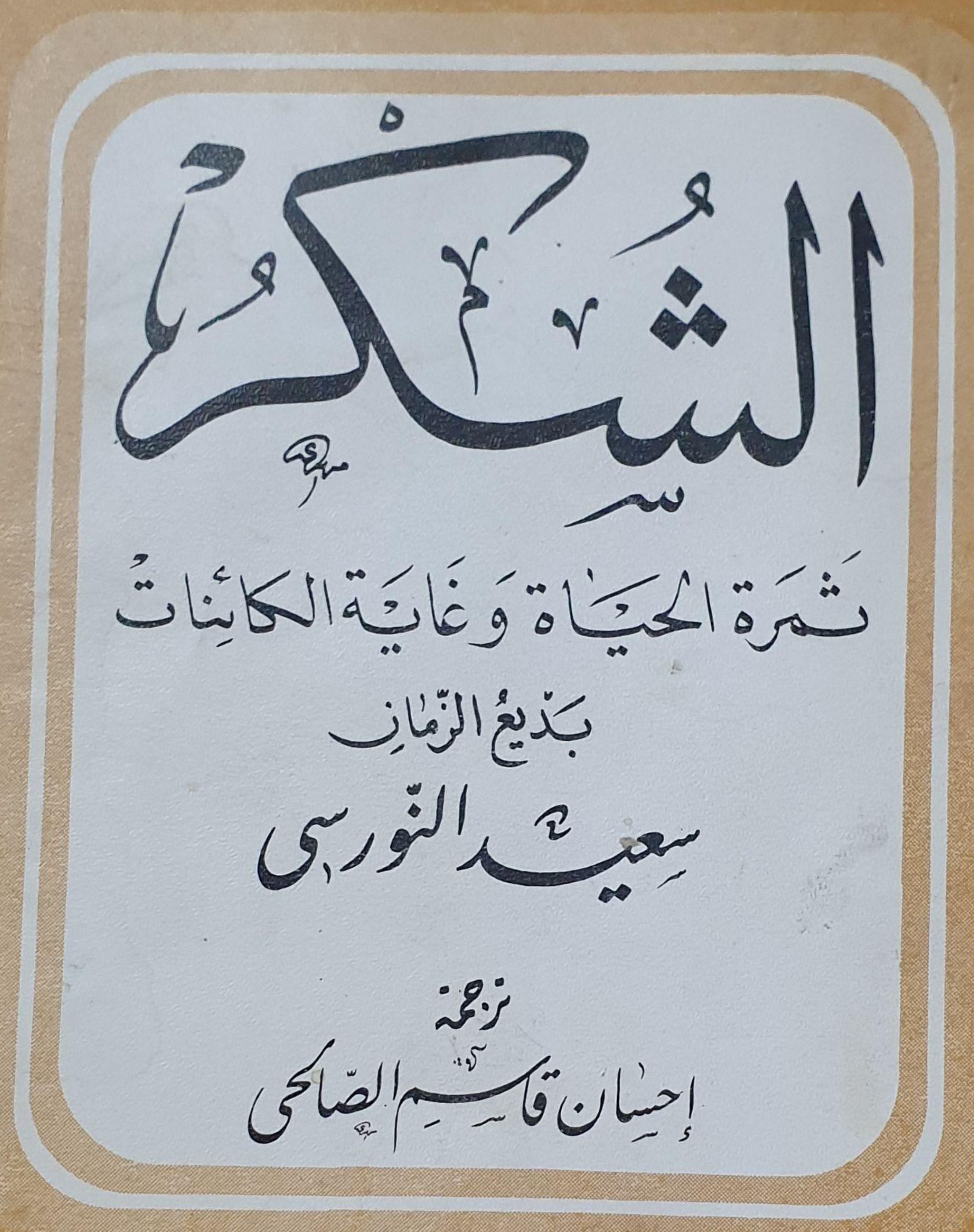
من كليات رسائل النور



من منشورات

مكتبة القدس - بغداد

من كليات رسائل النور

الشُكْرُ

ثمرة الحياة وغاية الكائنات

تتضمن : رسالة رمضان ورسالة الاقتصاد ورسالة الشكر ورسائل اخرى ملحقة بها .

بديع الزمان
سعيد النورسى

ترجمة

احسان قاسم الصالحي

ال

الطبعة الاولىٰ

١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م

من منشـــورات
مكتبة القدس - بغداد

مطبعـة الخلود - بغداد
تلفون : ٨٨٨٢٧٢٦

المكتوب التاسع والعشرون
«من كتاب المكتوبات»



رسالة رمضان

[هذا البحث عبارة عن تسع نكات دقيقة[1] ومسائل لطيفة تبين تسعاً من الحكم الكثيرة لصيام شهر رمضان المبارك]

(١) النكتة : هي مسألة لطيفة أُخرجت بدقة نظر وامعان فكر ، وسميت المسألة الدقيقة نكتة لتأثير الخواطر في استنباطها (من التعريفات للجرجاني) .

«المترجم» .

بسم الله الرحمٰن الرّحيم

« شَهْرُ رَمَضَانَ الذى أُنزلَ فيهِ القرآنُ
هُدىً للناس وبَيِّناتٍ مِن الهُدىٰ والفُرقان »

(سورة البقرة / ١٨٥)

النكتة الاولى : *« الربوبية تتجلى في الصيام »*

أن صيــام شهــر رمضــان يأتي بين أوائل الاركان الخمسة للاسلام ، ويُعدّ من أعاظم الشعائر الاسلامية .

ان أكثر الحكم المتمخضة عن صوم رمضان تتوجّه ألى : إظهار ربوبية الحق تبــارك وتعــالى ، كمــا تتـوجّه الى حياة الانسان الاجتماعية والى حياته الشخصية ، وتتوجه أيضاً الى تربية النفس وتزكيتها ، والى القيام بالشكر تجاه النِعَم الآلهية .

نذكر حكمةً واحدة من بين الحِكم الكثيرة جداً من حيث تجلي ربوبية الحق تبارك وتعالى من خلال الصوم وهي :

ان الله سبحانه وتعالى قد خلق وجهَ الارض مائدةً ممتدة عامرة بالنِعم التي لا يحصرها العد ، وأعدها اعداداً بديعاً من حيث لا يحتسبه الانسان . فهو ـ سبحانه ـ يبيّن بهذا الوضع ، كمالَ ربوبيته ، ورحمانيتَه ، ورحيميته . بيد أن الانسان لا يبصر تمــامــاً ـ تحت حجــاب الغفلة وضمن ستــائر الاسباب ـ الحقيقةَ الباهرةَ التي يفيدها ويعّبــر عنهــا هذا الـوضــع ، وقـد ينســاهــا . . أمــا في رمضــان المبــارك فالمؤ منون يصبحون فوراً في حكم جيش منظّم ، يتقلدون جميعاً وشاح العبودية لله ، ويكونون في وضعٍ متأهب قُبيل الافطار لتلبية أمر القادر الازلي : «تفضّلوا» الى مائدة ضيافته الكـريمــة . . فيقــابلون ـ بوضعهم هذا ـ تلك الرحمة الجليلة الكلّية بعبودية واسعة

منظمة عظيمة . . ترى هل يستحق أولئك الذين لم يشتركوا في مثل هذه العبودية السامية ، وفي مثل هذه الكرامة الرفيعة أن يُطلق عليهم اسم : الانسان ؟

النكتة الثانية : *« الصوم مفتاح الشكر »*

ان هناك حكماً عدة يتوجه بها صيامُ رمضان المبارك بالشكر على النعَم التي أسبغها الباري علينا ، احداها :

أن الاطعمة التي يأتي بها خادمٌ من مطبخ سلطانٍ لها ثمنُها حتماً ـ كما ذُكر في الكلمة الاولى (١) ـ ويُعدّ من البلاهة توهّم تلك الاطعمة النفيسة تافهةً غير ذات قيمة ، ويعتبر من الحماقة أيضاً عدمُ معرفة مُنعمها الحقيقي ، في الوقت الذي تُمنح الخادم هبات وعطايا لأجلها . وكذلك الاطعمة والنعم غير المعدودة التي بثّها الله سبحانه في وجه الارض فانه يطلب منا حتماً ثمنَها ، ألا وهو القيام بالشكر له تجاه تلك النِعم . والاسباب الظاهرية التي تُحمل عليها تلك النعم وأصحابها الظاهرون هم بمثابة خَدَمة لها ، فنحن ندفع لاولئك الخدام ما يستحقونه من ثمن ونظل تحت فضلهم ومنّتهم ، بل نُبدي لهم من التوقير والشكر أكثر مما يستحقونه والحال أن المنعم الحقيقي سبحانه يستحق ـ ببثّه تلك النِعَم ـ أن نقّدم له غاية الشكر والحمد ، ومنتهى الامتنان والرضا ، وهو الاهلُ لكل ذلك ، بل أكثر . اذن فتقديم الشكر لله سبحانه واظهار الرضا ازاء تلك النعم انما يكون : بمعرفة أن تلك النعم والألاء صادرةٌ منه مباشرة . . وبتقدير قيمتها . . وبشعور الحاجة اليها .

لذا فان صيام رمضان المبارك لهو مفتاح شكرٍ حقيقي خالص ، وحمدٍ عظيم عام لله سبحانه . وذلك لأن أغلب الناس لا يدركون قيمة نِعَمٍ كثيرة ـ غير مضطرين إليها في سائر الاوقات ـ لعدم تعّرضهم لقساوة الجوع الحقيقي وأوضاره . فلا يُدرِك ـ مثلا ـ درجةَ النعمة الكامنة في كسرة خبز يابس أولئك المتخمون بالشبع ، وبخاصة إن كانوا أثرياء منعمين ، بينما يدركها المؤمن عند الافطار أنها نعمة آلهية

---

(١) ـ نشرت في كتاب «قطوف من ازاهير النور» (المترجم) .

ثمينة ، وتشهد على ذلك قوته الذائقة . لذا ينال الصائمون في رمضان - ابتداءاً من السلطان وانتهاء بأفقر فقير - شكراً معنوياً لله تعالى منبعثاً من ادراكهم قيمةَ تلك النعم العظيمة أما امتناع الانسان عن تناول الاطعمة نهاراً فانه يُفضي به الى أن يضع تلك النعم موضعها الصحيح اللائق بها ، ويجعله يتوصل الى ان يدرك بأنها نعمةٌ حقاً ، اذ يخاطب نفسه قائلا :

«ان هذه النِعم ليست مُلكاً لي ، فأنا لست حراً في تناولها ، فهي اذن تعود الى واحد آخر ، وهي أصلا من إنعامه وكَرَمه علينا ، وانا الآن في انتظار أمره» . . وبهذا يكون قد أدى شكراً معنوياً حيال تلك النعم .

وبهذه الصورة يصبح الصوم في حكم مفتاح للشكر من جهات شتى ، ذلك الشكر الذي هو الوظيفة الحقيقية للانسان .

النكتة الثالثة : *« حكمة اجتماعية للصوم »*

أن حكمة واحدة للصوم من بين حكمه الغزيرة المتوجهة الى الحياة الاجتماعية للانسان هي :

أن الناس قد خُلقوا على صور متباينة من حيث المعيشة ، وعليه يدعو اللهُ سبحانه الاغنياءَ لمدّ يد المعاونة لاخوانهم الفقراء . ولا جرم أن الاغنياء لا يستطيعون أن يستشعروا شعوراً كاملا حالات الفقر الباعثة على الرأفة ، ولا يمكنهم أن يحسوا احساساً تاماً بجوعهم ، الا من خلال الجوع المتولد من الصوم . . فلولم يكن هناك صوم لما تمكن كثير من الاغنياء - التابعين لاهوائهم - أن يدركوا مدى ألم الجوع والفقر ومدى حاجة الفقراء الى الرأفة والرحمة . لذا تصبح الشفقة على بني الجنس - المغروزة في كينونة الانسان - هي احدى الاسس الباعثة على الشكر الحقيقي ، حيث يمكن أن يجد كل فرد - أياً كان - مَن هو أفقر منه من جهة ، فهو مكلف بالاشفاق عليه .

فان لم يكن هناك اضطرار لإذاقة النفس مرارةَ الجوع ، لما قام أحد ـ أصلا ـ باسداء الاحسان الى الآخرين والذي يتطلبه التعاون المكلف به برابطة الشفقة على بني الجنس ، وحتى لو قام به لما أتقنه على الوجه الأكمل ، ذلك لأنه لا يشعر بتلك الحالة في نفسه شعوراً حقيقياً .

النكتة الرابعة : *« الصوم يربيّ النفس »*

ان صوم رمضان يحوي من جهة تربية النفس البشرية حكماً عدة ، احداها هي :

أن النفس بطبيعتها ترغب الانفلات عن عقالها حرة طليقة ، وتتلقى ذاتها هكذا . حتى أنها تطلب لنفسها ربوبية موهومة ، وحركة طليقة كيفما تشاء ، فهي لا تريد أن تفكر في كونها تنمو وتترعرع وتُربى بنعمٍ آلهية لا حد لها ، وبخاصة اذا كانت صاحبة ثروة واقتدار في الدنيا ، والغفلة تساندها وتعاونها . لذا تزدرد النعم الالهية كالانعام دون إذنٍ ورخصة .

ولكن تبدأ نفسُ كل شخص بالتفطن في ذاتها في رمضان المبارك ، ابتداء من أغنى غني الى أفقر فقير ، فتدرك : **بأنها ليست مالكة ، بل هي مملوكة ،** وليست حرة طليقة ، بل هي عبدة مأمورة ، فلا تستطيع أن تمدّ يدَها الى أدنى عمل لو لم يكن هناك أمر ، بل حتى لا تستطيع أن تمدها الى ماء . . وبهذا ينكسر غرور ربوبيتها الموهومة ، فتتقلد ربقة العبودية لله تعالى ، وتدخل ضمن وظيفتها الاساس وهي «الشكر» .

النكتة الخامسة : *« الصوم يهذّب النفس الامّارة »*

ان لصوم رمضان حكماً كثيرة من حيث توجهه الى تهذيب النفس الامارة بالسوء ، وتقويم أخلاقها وجعلها تتخلى عن تصرفاتها العشوائية . نذكر منها حكمة واحدة : ـ

أن النفس الانسـانيـة تنسى ذاتهـا بالغفلة ولا ترى ما في ماهيتها من عَجز غير محدود ، ومن فقر لا يتناهى ، ومن تقصيرات بالغة ، بل لا تريد أن ترى هذه الامور الكـامنـة في ماهيتهـا ، فلا تفكـر في غايـة ضعفها ومدى تعرضها الى الزوال ومدى استهـداف المصـائب لهـا ، كمـا تنسى كونهـا من لحم وعظم يتحللان ويفسـدان بسـرعـة ، فتتصـرف واهمـة كأن وجودها من فولاذ وأنها منزّهة عن الموت والزوال ، وأنهـا خالـدة أبـديـة ، فتـراهـا تنقضّ على الدنيا وترمي نفسها في أحضانها حاملة حرصاً شديداً وطمعاً هائلا وترتبط بعلاقة حميمة ومحبة عارمة معها ، وتشد قبضتها على كل ما هو لذيذ ومفيد ، ومن ثم تنسى خالقها الذي يربّيها بكمال الشفقة والرأفة فتهوي في هاوية الاخلاق الرديئة ناسية عاقبة أمرها وعقبى حياتها وحياة أُخراها .

ولكن صوم رمضـان يُشعـر أشدَّ الناس غفلة وأعتاهم تمرداً بضعفهم وعجزهم وفقـرهم ، فبـوسـاطـة الجـوع يفكـر كلٌّ منهم في نفســه وفي معدته الخاوية ويدرك الحـاجـة التي في معـدتـه ، فيتـذكـر مدى ضعفه ومدى هزالته ، ومدى حاجته الى الرحمة الالّهية ورأفتها ، فيشعر في أعماقه توقاً الى طرقِ بابِ المغفرة الربانية بعجز كامل وفقر ظاهر متخلياً عن فرعنة النفس متهيئاً بذلك لطرقِ باب الرحمة الالّهية بيد الشكر المعنوي (ان لم تفسدَ الغفلة بصيرته) .

النكتة السادسـة : *« رمضان شهر القرآن »*

ان من الحكم الـوفيـرة في صيـام رمضـان المبارك من حيث توجهه الى نزول القـرآن الكـريم ومن حيث أن شهـر رمضان هو أهم زمان لنزوله ، نورد حكمة واحدة فقط هي : -

لما كان القرآن الكريم قد نزل في شهر رمضان المبارك فلا بد من التجرد عن الحاجيات الدنيئة للنفس ، ونبذ سفاسف الامور وترهاتها استعداداً للقيام باستقبال ذلـك الخطـاب السمـاوي استقبـالا طيباً يليق به ، وذلك باستحضار وقت نزوله في هذا الشهـر والتشبـه بحـالات روحـانية ملائكية بترك الاكل والشرب ، والقيام بتلاوة ذلـك القـرآن الكـريم تلاوةً كأن الآيات تتنزل مجدداً ، والاصغاء اليه بهذا الشعور

بخشوع كامل ، والاستماع الى ما فيه من الخطاب الآلهي للسمو الى نيل مقام رفيع وحالة روحية سامية ، كأن القارىء يسمعه من الرسول الاكرم ﷺ ، بل شد السمع اليه كأنه يسمعه من جبريل عليه السلام ، بل من المتكلم الازلي سبحانه وتعالى . ومن ثم القيام بتبليغ القرآن الكريم وتلاوته للآخرين تبياناً لحكمة من حكم نزوله .

أن العالم الاسلامي في رمضان المبارك يتحول الى ما يشبه المسجد ، ويا له من مسجد عظيم تعج كل زاوية من زواياه ، بل كل ركن من أركانه ، بملايين الحفّاظ للقرآن الكريم . يرتلون ذلك الخطاب السماوي على مسامع الارضيين ، ويظهرون بصورة رائعة براقة مصداق الآية الكريمة : [**شَهْرُ رَمَضانَ الذي أُنْزِلَ فيهِ القُرآنُ** . .] . مثبتين بذلك أن رمضان هو حقاً شهر القرآن . أما الافراد الآخرون من تلك الجماعة العظمى فمنهم من يلقي السمع اليهم بكل خشوع وهيبة ، ومنهم من يرتل تلك الآيات الكريمة لنفسه . . .

ألا ما أقبح وما أزرى الانسلاخ من هذا المسجد المقدس الذي له هذا الوضع المهيب لهاثاً وراء الاكل والشرب تبعاً لهوى النفس الامارة بالسوء ! وكم يكون ذلك الشخص هدفاً لاشمئزاز معنوي من قبل جماعة المسجد ؟ وهكذا الامر في الذين يخالفون الصائمين في رمضان المبارك فيصبحون هدفاً لازدراء واهانة معنويين ـ بتلك الدرجة ـ من قبل العالم الاسلامي كله .

النكتة السابعة : *« زراعة اخروية وتجارة خالدة »*

ان صيام رمضان من حيث تطلعه لكسب الانسان ـ الذي جاء الى الدنيا لأجل مزاولة الزراعة الأُخروية وتجارتها ـ له حكم شتى الا اننا نذكر واحدة منها هي : ـ

أن ثواب الاعمال في رمضان المبارك يضاعَف الواحدُ الى الالف . ومن المعلوم أن كل حرف من القرآن الحكيم له عشر أثوبة ، ويعدّ عشر حسنات ، ويجلب عشر ثمار من ثمرات الجنة ـ كما جاء في الحديث الشريف ـ ففي رمضان

يولّد كل حرف ألفاً من تلك الثمرات الأُخروية بدلاً من عشرٍ منها ، وكل حرف من حروف آيات ـ كآية الكرسي ـ يفتح الباب أمام الالوف من تلك الحسنات لتتدلى في الآخرة ثماراً حقيقية . وتزداد تلك الحسنات باطراد أيام الجُمع في رمضان ، وتبلغ الثلاثين ألفاً من الحسنات ليلة القدر .

نعم ، ان القرآن الكريم الذي يهب كل حرف منه ثلاثين ألفاً من الثمرات الباقية ليكون بمثابة شجرة نورانية ـ كشجرة طوبى الجنة ـ بحيث يُغنِم المؤمنين في رمضان المبارك تلك الثمرات الدائمة الباقية التي تعد بالملايين . . تأمل هذه التجارة المقدسة الخالدة المُربِحة وأجل النظر فيها ، ثم تدبر في أمر الذين لا يقدّرون قيمة هذه الحروف المقدسة حق قدرها ، ما أعظم خسارتهم وما أفدحها ؟

وهكذا ، فان رمضان المبارك أشبه ما يكون بمعرض رائع للتجارة الأُخروية أو هو سوق في غاية الحركة والربح لتلك التجارة . . . وهو كالارض المنبتة في غاية الخصوبة والغَناء لإنتاج المحاصيل الأُخروية . . . وهو كالمطر النازل في نيسان لإنماء الاعمال وبركاتها . . . وهو بمثابة مهرجان عظيم وعيد بهيج مقدّس لعرض مراسيم العبودية البشرية تجاه عظمة الربوبية وعزة الالوهية .

لأجل كل ذلك فقد أصبح الانسان مكلَّفاً بالصوم ، لئلا يلج في الحاجات الحيوانية ، كالأكل والشرب من حاجات النفس الغافلة عن وظائفها ولكي يتجنب الانغماس في شهوات الهوى وما لا يعنيه من الامور . . وكأنه أصبح بصومه مرآة تعكس «الصمدية» حيث قد خرج مؤقتاً من الحيوانية ودخل الى وضع مشابهٍ للملائكية ، أو أصبح شخصاً أُخروياً وروحاً ظاهرة متجسدة ، بدخوله في تجارة أُخروية وتخلّيه عن الحاجات الدنيوية المؤقتة .

نعم ، ان رمضان المبارك يكسب الصائم في هذه الدنيا الفانية وفي هذا العمر الزائل وفي هذه الحياة القصيرة عمراً باقياً وحياة سرمدية مديدة ، ويتضمن كلها .

فيمكن لشهر رمضان واحد فقط أن يهب الصائم ثمرات عمرٍ يناهز الثمانين سنة . وكون ليلة القدر خير من ألف شهر ـ بنص القرآن الكريم ـ هو حجة قاطعة لهذا السر .

فكما يحدد سلطان أياماً معينة في فترة حكمه ، أو في كل سنة ، سواء باسم تسنمه عرش الحكم أو أي يوم آخر من الايام الزاهرة لدولته ، جاعلا من تلك الايام مناسبات وأعياداً لرعيته ، فتراه لا يعامل رعيته الصادقين المستحقين في تلك الايام بالقوانين المعتادة ، بل يجعلهم مظهراً لاحسانه وأنعامه وأفضاله الخاصة . فيدعوهم الى ديوانه مباشرة دون حجب ، ويخصّهم برعايته الخاصة ويحيطهم بكرمه وباجراءاته الاستثنائية ، ويجود عليهم بتوجهاته الكريمة . . كذلك القادر الازلي ذو الجلال والاكرام وهو سلطان الازل والابد وهو السلطان الجليل لثمانية عشر ألفاً من العوالم . فقد أنزل سبحانه في شهر رمضان أوامره الحكيمة السامية وقرآنه الحكيم المتوجه الى تلك الالوف من العوالم ، **لذا فان دخول ذلك الشهر المبارك في حكم عيد ومناسبة آلهية خاصة بهيجة ، وفي حكم معرض بديع رباني ، ومجلس مهيب روحاني ، لهو من مقتضى الحكمة** . فما دام شهر رمضان قد تمثل بتلك المناسبة البهيجة وذلك العيد المفرح فلا بد أن يؤمَر فيه بالصوم ، ليسموا الناس ـ الى حدٍ ما ـ على المشاغل الحيوانية السافلة ، فالكمال في ذلك الصوم هو : جعل جميع حواس الانسان كالعين والاذن والقلب والخيال والفكر على نوع من الصوم ، كما تقوم به المعدة . أي تجنيب الحواس تلك من المحرمات والسفاهات وما لا يعنيها من أمور ، وسوقها الى عبودية خاصة لكل منها .

فمثلا : يروّض الانسان لسانه على الصوم من الكذب والغيبة والعبارات النابية ويمنعه عنها ، ويرطب ذلك اللسان بتلاوة القرآن الكريم وذكر الله سبحانه والتسبيح بحمده والصلوات والسلام على الرسول الكريم ﷺ والاستغفار ، وما شابهه من أنواع الاذكار .

ومثلا : يغض بصره عن المحرمات ، ويسد أذنه عن الكلام البذيء ، ويدفع عينه الى النظر بعبرةٍ وأُذنَه الى سماع الكلام الحق والقرآن الكريم . وبذلك يجعل سائر حواسه على نوع من الصيام .

ومن المعلوم أن المعدة التي هي مصنع كبير جداً إن عطّلت أعمالَها بالصيام فان تعطيل المعامل الصغيرة الاخرى يكون سهلا ميسوراً .

النكتة الثامنة : *« الصوم علاج ناجع »*

ان حكمــة من الحكم الكثيــرة لصيـام رمضـان المبـارك المتعلقـة بالحيـاة الشخصية للانسان تتلخص بما يأتي :

ينحصر أهم نوع من أنواع العلاج الناجع للانسان في «الحِمية» سواء المادية منها أو المعنوية ، فالحِمية ثابتة طباً . اذ إن الانسان كلما سلكت نفسُه سلوكاً طليقاً في الاكـل والشـرب سبَّب له أضراراً مادية في حياته الشخصية . وكذلك الحال في حياته المعنوية ، اذ إنه كلما إلتهم ما يصادفه دون النظر الى ما يحل له ويحرم عليه تسممت حيـاتـه المعنـويـة وفسـدت ، جتى يصل به الامر ان تستعصي نفسُه على طاعـة القلب والـروح فلا تخضـع لهمـا . فتأخـذ زمـامَهـا بيـدهـا وهي طائشة حرة طليقة ، وتسوق الانسانَ الى شهواتها دون أن تكون تحت سيطرة الانسان وتسخيره .

أما في رمضان المبارك فان النفس تعتاد على نوع من الحمِية بوساطة الصوم وتسعى بجد في سبيل التزكية والترويض وتتعلم طاعة الاوامر ، فلا تصاب بأمراض ناشئـة من امتـلاء المعـدة المسكينـة وادخـال الطعام على الطعام . وتكسب قابلية الاصغـاء الى الاوامـر الواردة من العقل والشريعة . وتتحاشى الوقوع في الحرام بما أخـذت من أمـر التخلي عن الحـلال . وتجـدّ في عدم الاخـلال بالحيـاة المعنوية وتكدير صفوها .

ثم أن الاكثرية المطلقة من البشرية يُبتلَون بالجوع في أغلب الاحيان . فهم بحـاجـة الى ترويض ، وذلـك بالجـوع الذي يعوّد الانسان على الصبر والتحمل . وصيام رمضان هو ترويض وتعويد وصبر على الجوع يدوم خمس عشرة ساعة أو أربع وعشـرين ساعـة لمن فاتـه السحـور . **فالصـوم اذن علاج ناجـع لهلع الانسان وقلة صبره ، وعدم تحمله الامور اللذين يضاعفان من مصيبة الانسان وبلاياه .**

والمعدة كذلك هي نفسها بمثابة معمل لها عمال وخدَمَة كثيرون ، وهناك في الانسان أجهزة ذات علاقات وارتباطات معها ، فان لم تعطّل النفسُ مشاغلَها وقت النهـار مؤقتـاً لشهـر معين ولم تدعها ، فانها تُنسي أولئك العمال والخدَمَة عباداتهم

الخاصة بهم ، وتُلهيهم جميعاً بذاتها ، وتجعلهم تحت سيطرتها وتحكمها ، فتشوش الامر على تلك الاجهزة والحواس وتنغّص عليها بضجيج دواليب ذلك المصنع المعنوي وبدخانه الكثيف ، فتصرف أنظار الجميع اليها وتنسيهم وظائفهم السامية مؤقتاً . ومن هنا كان كثير من الاولياء الصالحين يعكفون على ترويض أنفسهم على قليل من الاكل والشرب ، ليرقوا في سلّم الكمال .

ولكن بحلول شهر رمضان يدرك أولئك العمال أنهم لم يُخلقوا لأجل ذلك المصنع فحسب . بل تتلذذ تلك الاجهزة والحواس بلذائذ سامية وتتمتع تمتعاً ملائكياً وروحانياً في رمضان المبارك ويركزون أنظارهم اليها بدلا من اللهو الهابط لسائر الاجهزة والمصانع . لذلك ترى المؤمنين في رمضان المبارك ينالون مختلف الانوار والفيوضات والمسرات المعنوية - كلٌ حسب درجته ومنزلته - . فهناك ترقيات كثيرة وفيوضات جمة للقلب والروح والعقل والسر وأمثالها من اللطائف الانسانية في ذلك الشهر المبارك . وعلى الرغم من بكاء المعدة ونحيبها فان تلك اللطائف يضحكن ببراءة ولطف .

النكتة التاسعة : *« الجوع يقصم فرعونية النفس »*

ان صوم رمضان من حيث كسرهِ الربوبية الموهومة للنفس كسراً مباشراً ومن ثم تعريفها عبوديتها واظهار عجزها أمامها ، فيه حكم كثيرة ، منها :

أن النفس لا تريد أن تعرف ربها ، بل تريد أن تدعي الربوبية بفرعونية طاغية . فمهما عُذبَت وقُهرت فان عِرق تلك الربوبية الموهومة يظل باقياً فيها . فلا يتحطم ذلك العرق ولا يركع الا أمام سلطان الجوع .

وهكذا ، فصيام رمضان المبارك ينزل ضربة قاضية مباشرة على الناحية الفرعونية للنفس . فيكسر شوكتها مُظهراً لها عجزها ، وضعفها ، وفقرها ، ويعرّفها عبوديتها .

وقد جاء في احدى الروايات للحديث : ان الله سبحانه قال للنفس : «مَن أنا وما أنتِ ؟» أجابت النفس : «أنا أنا ، أنت أنت» فعذبّها الربُ سبحانه وألقاها

في جهنم ، ثم سألهـا مرة أخـرى فأجـابت : «أنا أنا ، أنت أنت» ومهما أذاقها من صنوف العـذاب لم تردع عن أنـانيتهـا . . ثم عذبها الله تعالى بالجوع ، أي تركها جائعـة ، ثم سألهـا مرة أخـرى : من أنـا ومـا أنتِ ؟ فأجـابت النفس : أنتَ ربيِ الرحيم وأنا عبْدك العاجز .

اللهم صل وسلم على سيدنا محمد صلاةً تكون لك رضاءً ولحقّه أداءً بعدد ثواب حروف القرآن في شهر رمضان وعلى آله وصحبه وسلم .

(سُبحانَ ربِّكَ رَبِّ العِزَّةِ عمّا يَصفون . وسلامٌ على المُرسَلين . والحمدُ لله رَبِ العالَمين) آمين .

اعتـذار : لقد كتبت هذه الرسالة على عجل خلال اربعين دقيقة فقط ، ولكوني وكاتب المسودة مصـابين بالمـرض ومـرهقين معـاً ، فلاغـرو ان يعتـرى الـرسالة شيٌ من القصور ، لذا نستميح العذر من اخواننا ونرجوهم تصحيح ما يرونه مناسباً .

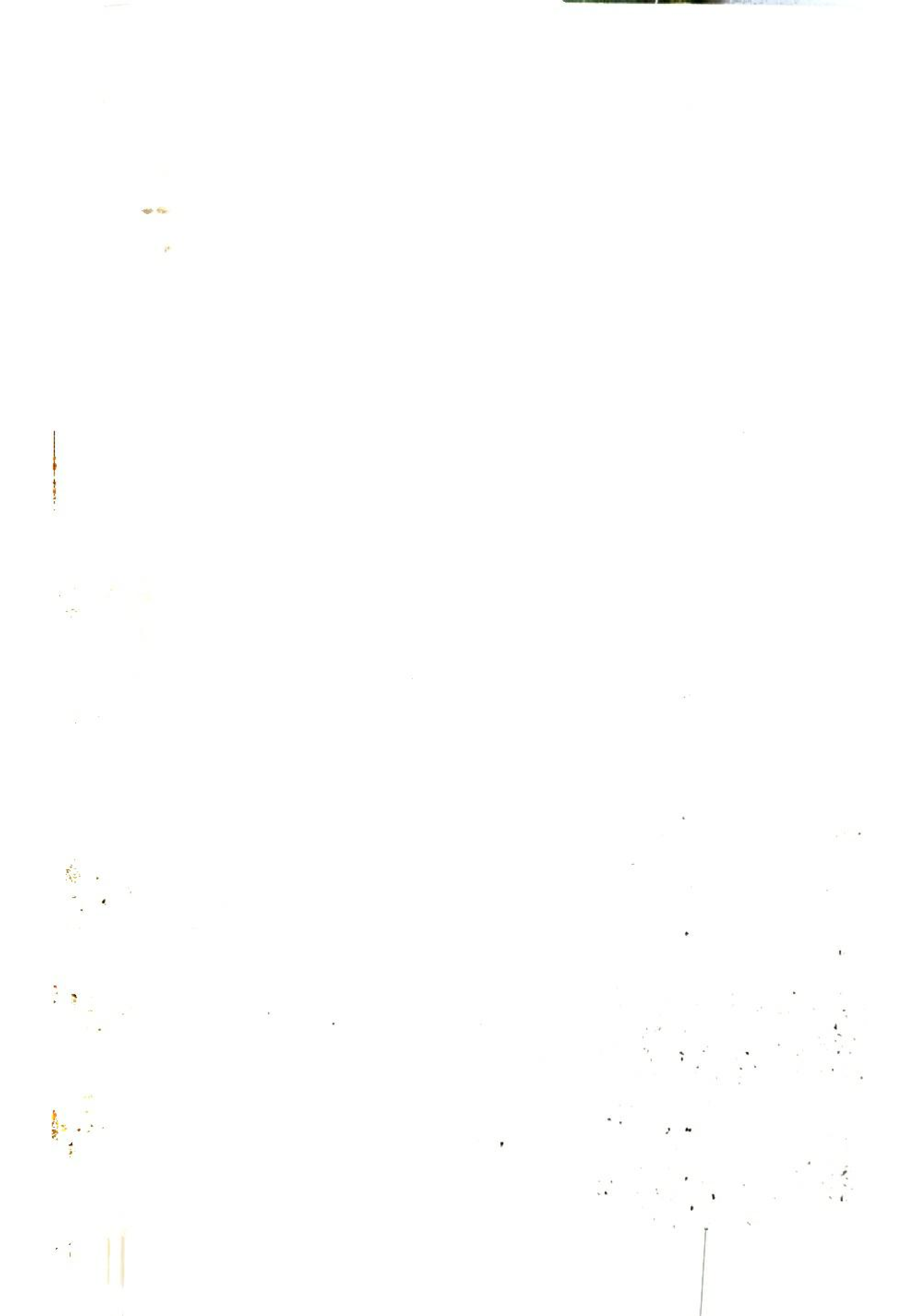
سعيد النورسي



اللمعة التاسعة عشرة
من كتاب «لمعه لر»
«اللمعات»

رســـالة الاقتصـــاد

[هذه الـرسـالة تحضّ على الاقتصاد والقناعة وتحـذّر من مغبـة الاسـراف والتبـذيـر] .



بسم الله الرحمن الرحيم

« وكُلوا وَاشرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا »

(سورة الاعراف / ٣١)

[هذه الآية الكريمة تلقّن درساً في غاية الأهمية وتـرشـد إرشاداً حكيماً بليغاً ـ بصيغة أمر قاطع ـ الىٰ الاقتصـاد ، ونهي صريـحٍ عن الاسراف . تتضمن هـذه المسألة سبع نكات وهي] :

النكتة الاولىٰ *« الاقتصاد شـكر معنوي »*

ان الخـالق الـرحيم سبحـانـه يطلب من البشـرية شكراً وحمداً إزاء ما أغدق عليها من النعم والآلاء ، الاّ ان الاسراف منافٍ للشكر واستخفاف خاسر وخيم تجاه النعمة . بينما الاقتصاد توقيرٌ مربح ازاء النعمة .

أجل . إن الأقتصاد كما هو شكر معنوي ، فهو توقير للرحمة الألٓهية الكامنة في النعم والاحسان . . . وهو سبب حاسم للبركة والاستكثار . . وهو مدار صحة الجسد بالحِمية وهو سبيل الى العزة بالابتعاد عن ذلّ الاستجداء المعنوي . . وهو وسيلة قويـة لإحسـاس ما في النعم والآلاء من لذة . . . وهـو سبب متين لتـذوق اللذائـذ المخبأة في ثنـايـا نعمٍ تبدو غير لذيذة . . ولكون الأسراف يخالف الحِكَم المذكورة آنفاً فان عواقبه باتت وخيمة .

لقـد خلق الفـاطـر الحكيم جسم الانسـان بما يشبه قصراً كامل التقويم وبما يمـاثـل مدينـة منتظمـة الأجـزاء ، وجعـل حاسـة الـذوق المغروزة في فمه كالبوّاب الحـارس ، والأعصـاب والأوعيـة بمثابة أسلاك هاتف وتلغراف (تتم خلالها دورة المخـابـرة الحسـاسـة بين القـوة الـذائقة والمعدة التي هي في مركز كيان الانسان) بحيث تقوم حاسة الذوق تلك إبلاغ ما حلّ في الفم من المواد ، وتحجز عن البدن والمعـدة الأشيـاء الضـارة التي لا حاجة للجسم لها قائلة : «ممنوع الدخول» نابذةً ايـاهـا ، بل لا تلبث أن تدفـع وتبصق باستهجـان في وجـه كل ما هو غير نافع للبدن فضلاً عن ضرره ومرارته .

ولمـا كانت القـوة الـذائقـة في الفم تؤدي دَور البوّاب الحارس . وان المعدة هي سيدة الجسد وحاكمته من حيث الادارة ، فلو بلغت قيمة هديةٍ تُقدَّم الى حاكم القصـر مئـة درجـة فان خمسـاً منها فقط يجوز أن يعطى هبةً للحارس لا اكثر ، كيلا يختال الحارس وينسىٰ وظيفته ويقحم في القصر كل مخلّ عابث يرشوه قرشاً اكثر .

وهكذا ، بناءء على هذا السرّ ، نفترض الآن أنهّ أمامنا لقمتين : لقمة منها من مادة مغذيّة ـ كالجبن والبيض مثلاً ـ يُقدّر ثمنها بقرش واحد ، واللقمة الأخرىٰ هي حلوىٰ من نوع فاخـر يُقـدّر ثمنهـا بعشـرة قروش ، فهـاتـان اللقمتان متساويتان قبل دخـولهمـا الفم ـ بالنسبـة الى الجسم ولا فرق بينهما ،وهما متساويتان كذلك من حيث إنمـاء الجسم وتغـذيتـه بعـد دخـولهما الفم ونزولهما عبر البلعوم . . . بل قد يغـذّي الجبن ـ الـذي هو بقـرش واحـد ـ تغـذيـة أفضـل وتنميـة أقـوىٰ من اللقمـة الأخرىٰ . اذن ليس هناك من فرق الاّ ملاطفة القوة الذائقة في الفم التي لا تستغرق سوىٰ نصف دقيقة . فليقدر إذن مدىٰ ضرر الاسراف ويوازَن مدىٰ التفاهة في صرف عشرة قروش بدلاً عن قرش واحد في سبيل الحصول على لذة تستغرق نصف دقيقة .

وهكـذا فان اثـابة الحارس تسعة أضعاف ما يُقدّم الى حاكم القصر من هدايا تُفضي به ـ لا محـالـة ـ الى الغـرور والجشـع وتـدفعه بالتالي الى القول : «انما أنا

الحاكم» ، فمن كافأه بهبة اكثر ولذة أزيد ، دفعه الى الداخل دفعاً ، مسبّباً إخلال النظام القائم هناك ، مضرماً فيه ناراً مستعرة وملزماً صاحبه الاستغاثة صارخاً : «هيّا اسرعوا اليّ بالطبيب حالاً ليسكّن شدة حرارتي ويطفئ لظى نارها» .

فالاقتصاد والقناعة اذاً هما الانسجام التام مع الحكمة الألٰهية والتوافق الكامل معها ، اذ يتعاملان مع القوة الذائقة معاملة الحارس ويقفانها عند حدّها ويكافئانها حسب تلك الوظيفة ، أما الاسراف فلأنه يسلك سلوكاً مخالفاً لتلك الحكمة ، فسرعان ما يتلقى المسرف الصفعات الموجعة اذ تحدث الاختلاطات المؤلمة في المعدة التي تؤدي الى فقدان الشهية الحقيقية نحو الأكل ،فيضطر الى اثارتها اثارة مصطنعة بتنويع الأطعمة مما يسبب عسراً في الهضم .

النكتة الثالثة *« إلتماس اللذة لأجل الشكر »*

قلنا في النكتة الثانية آنفاً : ان القوة الذائقة تؤدي دور الحارس . نعم هي كذلك عند الغافلين الذين لم يَسموُا بعدُ روحياً ولم يتقدموا في مضمار الشكر والعروج في مدارجه ، نعم إنه لا ينبغي اللجوء الى الاسراف ـ كصرف عشرة أضعاف الثمن ـ لأجل تلذذ تلك الحاسة الحارسة . اذ القوة الذائقة لدى الشاكرين حقاً ولدى أهل الحقيقة وأهل القلوب وأولي الأبصار انما هي بمثابة راصدة وناظرة (مفتشة) لمطابخ الرحمة الألٰهية (كما وضح ذلك في المقارنة المعقودة في الكلمة السادسة)[1] . وان ما يتم في تلك القوة الذائقة من عملية تقدير قيمة النعم الألٰهية ومن التعرف عليها بأنواعها المختلفة ـ بما فيها من موازين دقيقة حساسة عديدة بعدد الاطعمة ـ انما هو لأبلاغ الجسد والمعدة ، بما ينّم عن شكر معنوي .

---

(١) ـ نشرت تحت عنوان «التجارة الرابحة» ضمن كتاب «قطوف من أزاهير النور» . (المترجم) .

فلا تقتصر وظيفة القوة الذائقة على رعاية الجسد رعاية مادية فحسب ، بل هي أرقى حكماً من وظيفة المعدة وأرفع منزلة منها ، لما لها من رعاية للقلب والروح والعقل ومن عناية لكل منها ، علماً أنها تستطيع أن تمضي في سبيل الحصول على لذتها ـ بشرط عدم الاسراف ـ انجازاً لمهمة الشكر الخالص المقدرة لها ، وبنيّة التعرف والأطلاع على أنواع النعم الألٓهية بتذوقها والشعور بها ـ بشرط مشروعيتها وعدم كونها وسيلة للتذلل والاستجداء ـ أي أننا نستطيع أن نستعمل ذلك اللسان الحامل للقوة الذائقة في الشكر عند قيامه بالتفضيل بين الأطعمة اللذيذة .

واليكم هذه الحادثة اشارة الى هذه الحقيقة . . . وهي كرامة من كرامات الشيخ الكيلاني « قُدس سرّه » . . . كان لعجوز رقيقة لطيفة ابنٌ وحيد يتربّى على يد الشيخ ، دخلت تلك العجوز الموقرة ذات يوم على ابنها ورأت انه يأكل من كسرة خبز يابس أسمر مزاولاً رياضة روحية حتى ضعف ونحل جسمه . أثارت هذه الحالة شفقة والدته الرؤوم ورقّت لحاله فذهبت لتشتكيه الى الشيخ الكيلاني واذا بها ترى الشيخ يأكل دجاجاً مشوياً ، ولشدة رقتها ولطافتها قالت : أيها الشيخ ان أبني يكاد يموت جوعاً وها أنت ذا تأكل الدجاج ؟! فخاطب الشيخ الدجاج قائلاً : «قم باذن الله» فوثب ذلك الدجاج المطبوخ الى خارج الوعاء بعد ان اكتمل دجاجاً حياً بالتئام عظامه . لقد نقل هذا الخبر والرواية بالتواتر المعنوي من ثقاتٍ كثيرين ثبت اظهاراً لكرامة واحدة من صاحب الكرامات المشهورة في العالم : «الشيخ الكيلاني» قُدس سرّه . ومما قاله الشيخ لتلك العجوز : «متىٰ ما بلغ إبنك الى هذه الدرجة . . فليأكل الدجاج هو الآخر كذلك» .

فمغزىٰ هذا الأمر الصادر من الشيخ الكيلاني هو : «**متى ما حَكَمتَ روحُ إبنك جَسَدَهُ وهيمن قلبُه على نفسِه ، وسادَ عقلُه معدتَه ، والتمس اللذةَ لأجل الشكر . . . عندئذٍ يمكنه أن يتناول مالذّ وطاب من الأطعمة**» .

النكتة الرابعة *« الاقتصاد سبب العزّة »*

ان المقتصد لا يعاني فاقة من غائلة العائلة كما هو مفهوم الحديث الشريف

«لا يعـول من اقتصـد» . أجـل هناك من الدلائل القاطعة التي لا يحصرها العدّ بأن الاقتصاد سبب جازم لأنزال البركة ، وأساس متين للعيش الأفضل أذكر منها ما رأيته في نفسي وبشهادة الذين تولوا خدمتي وصادقوني باخلاص فأقول :

لقد حصلتُ أحياناً ـ وحصل أصدقائي ـ على عشرة اضعافٍ من البركة بسبب الاقتصاد حتى انني قبل تسع سنوات[1] سعى قسم من رؤساء العشائر المنفيين معي الى «بوردور»[2] واصرّوا عليّ قبول زكاتهم كي يحولوا بيني وبين وقوعي في مهاوي الذلة والحاجة لقلّة ما عندي من النقود ، فقلت لاولئك الرؤساء الأثرياء : «رغم أن نقـودي قليلة جداً الاّ انني املك الأقتصـاد ، وقـد تعـودت على القناعة ، فانا أغنى منكم بكثيـر . » ؛ فرفضت تكليفهم المتكـرّر الملحّ . . ومن الجدير بالملاحظة ان قسمـاً من اولئـك الـذين عرضـوا علّي زكـاتهم قد غَلَبَهم الـدَّين بعد سنتين ، لعدم التـزامهم بالاقتصـاد ، الاّ أن تلك النقـود الضئيلة قد كفتني ـ ولله الحمد ـ ببركة الله في الاقتصـاد الى ما بعـد سبـع سنـوات ، فلم تُرق مني ماء الـوجـه ، ولم تدفعني لعـرض حاجتي الى النـاس ، ولم تفسـد عليّ ما اتخـذتـه دستـوراً لحيـاتي وهـو «الاستغناء عن الناس» .

نعم ان من لا يقتصـد ، مدعوّ للسقوط في مهاوي الذلّة ، ومعرّض للانزلاق الى الاستجداء والهوان معنىً .

ان المـال الـذي يستعمـل في الاسراف في زماننا هذا لهو مال غالٍ وباهظ جداً ، حيث تدفع أحياناً الكرامة والشرف ثمناً ورشوة له ، بل قد تسلب المقدسات الـدينيـة ، ثم يُعطى نقـوداً منحـوسـة مشؤومـة ، اي يقبض بضعـة قروش من نقود مادية ، على حساب مئات الليرات من النقود المعنوية .

بينمـا لو اقتصد الانسـان على الحـاجـات الضرورية واختصرها وحصر همّه فيها ، فسيجد رزقاً يكفل عيشه من حيث لا يحتسب وذلك بمضمون الآية الكريمة :

---

(١) ـ المقصود سنة ١٩٢٦ م (المترجم) .

(٢) ـ مركز محافظة تقع في الجنوب الغربي لتركيا . (المترجم) .

« انّ الله هو الرزّاق ذو القوّة المتين »[1] .

وبصراحة الآية الكريمة :

« وما من دابّة في الأرض الاّ علىٰ الله رزقُها »[2] .

حيث أن هذه الآية تتعهد بذلك تعهداً وثيقاً .

نعم ، ان الرزق قسمان :

القسم الاول : وهو الرزق الحقيقي الذي تتوقف عليه حياة المرء ، وهو تحت التعهد الرّباني بحكم هذه الآية الكريمة ، فمهما كانت الأحوال يستطيع المرء الحصول على ذلك الرزق الضروري - ان لم يتدخل سوء اختياره - دون أن يضطر الى فداء دينه ، ولا التضحية بشرفه وعزته .

القسم الثاني : هو الرزق المجازي الذي لا يستطيع مَن أساءَ استعمالَه أن يتخلّى عن الحاجات غير الضرورية ، التي غدت ضرورية عنده نتيجة الابتلاء ببلاء التقليد والولع به . والحصول على هذا الرزق باهظ جداً - ولا سيمّا في هذا الزمان - حيث لا يدخل ضمن التعهد الرباني ، اذ قد يتقاضى ذلك المال بمقابل تضحيته بعزته سلفاً راضياً بالذل ، بل قد يصل به الحدّ الى السقوط في هاوية الاستجداء المعنوي ، والتنازل الى تقبيل أقدام أناس منحطين وضيعين ، لا بل قد يحصل على ذلك المال المنحوس الممحوق بالتضحية بمقدساته الدينية التي هي نور حياته الخالدة . ثم أن ذوي الوجدان الطاهر والضمائر الحية ينتابهم ألمٌ - من حيث العاطفة الانسانية - ناجمٌ مما يرونه من آلام يقاسيها المحتاجون البائسون في هذا الزمان الذي خيمّ عليه الفقر والحاجة فتشوّب لذتَهم - التي يحصلونها بأموال غير مشروعة - مرارةٌ مؤلمة ان كانوا

---

(١) - سورة الذاريات / ٥٨ .

(٢) - سورة هود / ٦ .

ذوي ضمائر حيّة ، انه ينبغي في هذا الزمان العجيب الاكتفاء بحدّ الضرورة في الأموال المشبوهة ، لأنه حسب قاعدة «**الضرورة تقدر بقدرها**» يمكن أن يؤخذ باضطرار من المال الحرام حدّ الضرورة وليس اكثر من ذلك . وليس للمضطر أن يأكل من الميتة الى حدّ الشبع ، بل له أن يأكل بمقدار ما يحول بينه وبين الموت وكذا لا يؤكل الطعام بشراهة أمام مئة من الجائعين .

نورد هنا حادثة واقعية للدلالة على كون الاقتصاد سبب العزة والكمال :

أقام «حاتم الطائي» المشهور بكرمه وسخائه وليمة عظيمة ذات يوم واغدق هدايا ثمينة على ضيوفه ، ومن ثم خرج للتجوال في الصحراء ، فرأىٰ شيخاً فقيراً يحمل على ظهره حملاً ثقيلاً من الحطب والكلأ والشوك يسيّل الدم من بعض جسمه . . فخاطبه قائلاً :

ـ أيها الشيخ ، ان حاتماً الطائي يقيم اليوم ضيافة كريمة ويوزع هدايا ثمينة ، بادرْ اليه لعلك تنال منه أموالاً أضعاف أضعاف ما تناله من هذا الحمل !! .

قال له ذلك الشيخ المقتصد : سأحمل حملي هذا بعزة نفسي وعرق جبيني ، ولا أرضىٰ ان أقع تحت طائل منّة حاتم الطائي .

ولما سئل حاتم الطائي يوماً :

ـ مَن من الناس وجدتَهم أعزَّ منك واكرم ؟ .

قال : ذلك الشيخ المقتصد الذي لقيته في المفازة ذات يوم ، لقد رأيتُه حقاً اعزّمني واكرم .

النكتة الخامسة « *الاقتصاد سبب البَرَكة واللذة* »

ان من كمال كرم الله سبحانه وتعالىٰ ، أنه يُذيقُ لذّة نِعَمه لأفقر الناس ، كما يذيقها أغناهم ، فالفقير يستشعر اللذة ويتذوقها كالسلطان .

نعم ان اللذة التي ينالها فقير من كسرة خبز أسود يابس بسبب الجوع الشديد والاقتصاد تفوق ما يناله السلطان أو الثري من أكله الحلوىٰ الفاخرة بالملل وعدم

الشهية النابعين من الاسراف .

ومن العجب حقاً أن يجرؤ بعض المسرفين والمبذّرين على اتهام المقتصدين بالخسّة . . حاشَ لله ، بل الاقتصاد هو العزة والكرم بعينه ، بينما الخسة والذلة هما حقيقة ما يقوم به المسرفون والمبذرون من سخاء ظاهري .

وهناك حادثة جرت في غرفتي في «اسبارطه»[1] في السنة التي تم تأليف هذه الرسالة تؤيد هذه الحقيقة وهي :

أصرّ أحد طلابي اصراراً شديداً على أن أقبل هديته ـ التي تزن أقتين ونصف الأقة (أي ثلاث كيلوات) من العسل ـ خرقاً لدستور حياتي[2] ، ومهما حاولت في بيان ضرورة التمسك على قاعدتي لم يقنع ، فاضطررت الى قبولها مرغماً على نية ان يشترك ثلاثةُ أخوةٍ معي في الغرفة فيها ويأكلوا منه باقتصاد طوال اربعين يوماً من شهري شعبان ورمضان المبارك ، ليكسب صاحبه المُهدي ثواباً ، ولا يبقوا دون حلاوة . لذا أوصيتهم بقبول الهدية لهم علماً انّي كانت عندي أقة من العسل (١,٢٨٠ كيلو) . . ورغم أن أصدقائي الثلاثة كانوا على استقامة حقاً وممن يقدّرون الاقتصاد حق قدره ، الاّ انهم ـ على كل حال ـ نَسَوه نتيجة قيامهم باكرام بعضهم لبعض ومراعاتهم شعور الآخرين والايثار فيما بينهم ، وتلك هي من الخصال الحميدة ، فانفدوا ثلاث كيلوات من العسل في ثلاث ليالٍ فقط ، فقلت مبتسماً :

ـ «لقد كانت نيتي أن أجعلكم تتذوقون طعم العسل ثلاثين يوماً أو أكثر ، ولكنكم انفذتموه في ثلاثة أيام فقط . . . فهنيئاً لكم !» . في حين انني بت أصرف ما كنت أملكه من العسل بالاقتصاد ، فتناولته طوال شهري شعبان ورمضان ، فضلاً عن أنه اصبح ـ ولله الحمد ـ سبباً لثواب عظيم ، حيث اعطيت لكل واحد من اولئك الأخوة

---

(١) ـ مركز محافظة في جنوب غربي تركيا (المترجم) .

(٢) ـ وهو أن الاستاذ النورسي ما كان ليقبل الهدايا دون مقابل . (المترجم) .

ملعقة واحدة منه[1] وقت الافطار .

ولـربمـا حَسِب الذين شاهدوا حالي تلك أنها خسّة ، واعتبروا أوضاع اولئك الاخـوة - في الليـالي الثـلاث - حالـة عزيـزة من الكرم ! ولكن شاهَدنا أن هناك عزةً عاليـةً وبـركـة واسعـة وثـوابـاً عظيماً - من زاوية الحقيقة - مضمراً تحت تلك الخسة الظـاهـريـة وان تحت ذلـك الكـرم والاسراف - ان لم يكن قد تُرك - من الاستجداء وترقّب ما في أيدي الآخرين - بطمع وجشع - وما شابهه من الحالات الناجمة منه ما هو أدنى بكثير من الخسة .

النكتة السادسـة «*الاقتصاد لا علاقة له بالخسّة*»

هنـاك بون شاسـع وفـرق هائـل بين الاقتصـاد والخسة . اذ كما أن التواضع الـــذي هو من الأخـلاق المحمـودة يخـالف معنىً التـذلـلَ الـذي هو من الاخـلاق المـذمـومـة مع أنـه يشـابهـه صورة . وكما أن الوقار الذي هو من الخصال الحميدة يخالف معنىً التكبّر الذي هو من الاخلاق السيئة مع أنه يشابهه صورة .

فكـذا الحـال في الاقتصـاد الـذي هو من الأخـلاق النبوية السامية بل هو من المحاور التي يدور عليها نظام الحكمة الآلهية المهيمن على الكون لا علاقة له أبداً بالخسّة التي هي مزيج من السفالة والبخل والجشع والحرص ، بل ليست هناك من رابطة بينما مطلقاً ، الاّ ذلك التشابه الظاهري . واليكم هذا الحدث المؤيد لهذه الحقيقة :

دخـل عبـد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما - وهو اكبر أبناء الفاروق الأعظم خليفـة رسـول الله ﷺ وأحـد العبادلة السبعة المشهورين ومن البارزين بين علمـاء الصحـابـة الأجـلاء - دخل هذا الصحابي الجليل يوماً في مناقشة حادة لدى تعـامله في السـوق على شئ لا يسـاوي قرشاً واحداً ، حفاظاً على الاقتصاد وصوناً للأمـانـة والاستقـامة اللتين تدور عليها التجارة ، في هذه الأثناء رآه صحابي آخر ،

---

(١) = أي ملعقة شاي كبيرة (ملعقة كوب) .

فظنّ فيه شيئاً من خسّة فاستعظمها منه ، اذ كيف يصدر هذا الأمر من ابن أمير المؤمنين وخليفة الأرض ، فتبعه الى بيته ليفهم شيئاً من أحواله ، فوجد أنه قضىٰ بعض الوقت مع فقير عند الباب وتبادلا حديثاً في لطف ومودة ، ومن ثم خرج من الباب الثاني وتجاذب أطراف الحديث مع فقير آخر هناك.أثار هذا الأمر لهفة ذلك الصحابي فأسرع الى الفقيرين للاستفسار منهما : -

- هلّا تفهماني ماذا فعل (ابن عمر) حينما وقف معكما ؟.
- لقد اعطىٰ كلًّا منا قطعة ذهب .

فراعه الأمر وقال شدهاً : يا سبحان الله . . ما أعجب هذا الأمر ، انه يخوض في السوق في نقاش شديد لأجل قرش واحد ، ثم ها هو ذا يغدق في بيته بمئات أضعافه على محتاجَين اثنين عن رضىً ومن دون أن يشعر به أحد ، . فسار نحو ابن عمر رضي الله عنهما ليسأله :

- أيها الإمام : ألا تحل لي معضلتي هذه ؟ لقد فعلت في السوق كذا وكذا وفي البيت كذا وكذا ؟! فردّ عليه قائلاً :

- «ان ما حدث في السوق هو نتيجة الاقتصاد والحصافة ، فعلتُه صيانةً للأمانة وحفظاً للصدق اللذين هما أساس المبايعة وروحها وهو ليس بخسّةٍ ولا ببخل ، وان ما بدر مني في البيت نابع من رأفة القلب ورقّته ومن سمو الروح واكتمالها . . فلا ذاك بخسةٍ ولا هذا باسراف» .

واشارةً الى هذا السرّ فقد قال الامام الأعظم «ابو حنيفة النعمان» رضي الله عنه :

«لا اسراف في الخير كما لا خير في الأسراف»

النكتة السابعة

« القناعة كنز لا يفنى »

ان الاسراف ينتج الحرص ، والحرص يوّلد ثلاث نتائج :

اولاها : عدم القناعة . وعدم القناعة هذا يُثني الشوقَ عن السعي وعن العمل ، بما يبثّ في نفس الحريص من الشكوى بدلاً من الشكر ، قاذفاً به الى

احضان الكسل ، فيترك المال الزهيد النابع من الكسب الحلال[1] ويبادر بالبحث عما لا مشقة ولا تكليف فيه من مال غير مشروع ، فيهدر في هذه السبيل عزته بل كرامته .

التيجة الثانية للحرص : الخيبة والخسران . اذ يفوت مقصود الحريص ويتعرض للاستثقال ويُحرم من التيسير والمعاونة حتى يكون مصداق القول المشهور :

« الحريصُ خائب خاسر » .

ان تأثير الحرص والقناعة ليجري في عالم الأحياء وفق دستور شامل وسنّة مطردة فمثلاً :

ان وصول أرزاق النباتات المضطرة الى الرزق اليها هو لقناعتها الفطرية . وسعي الحيوانات بنفسها بالحرص وراء الحصول على رزقها في عناء ونقص يبديان مدى الضرر الجسيم الكامن في الحرص ، ومدى النفع العظيم الكامن في القناعة .

وان سيلان الحليب ـ ذلك الغذاء اللطيف ـ الى أفواه الصغار الضعفاء عامة ومن حيث لا يحتسبون بما يبدونه من قناعة ينطق بها لسان حالهم وانقضاض الوحوش بحرص وجشع على أرزاقها الناقصة الملّوثة يثبت ما ندّعيه اثباتاً ساطعاً .

وان أوضاع الأسماك البدينة البليدة التي تنم عن القناعة الباعثة لوصول أرزاقها اليها كاملة وعجز الحيوانات الذكية كالثعالب والقردة عن تحصيل غذائها كاملاً مع حرصها سعياً وراءها وبقاءها هزيلة نحيفة ، ليبيّن ـ كذلك ـ مدى ما يسببه الحرص من المشقة والعناء ومدى ما تسببه القناعة من الراحة والهناء .

كما أن تردّى كثير من العلماء والأدباء بما يمنحهم ذكاؤهم ودهاؤهم من الحرص في فقر مدقع وعيش كفاف ، وغناء اكثر الأغبياء العاجزين واثرائهم لما لهم

---

(١) ـ اذ بسبب الابتعاد عن الاقتصاد ، يكثر المستهلكون ، ويقل المستحصلون ، ويبدأ الجميع يشدون نظرهم الى باب الحكومة ، وحينها تنتكس وتتناقص الصناعة والتجارة والزراعة التي هي محور الحياة الاجتماعية ومدارها ، وينهار المجتمع ويتدنى بدوره ويغدو فقيراً معدِماً .

من حالة فطرية قنوعة ليثبت اثباتاً قاطعاً : «ان الرزق الحلال يأتي حسب العجز والافتقار وليس بالاقتدار والاختيار . » ذلك أن أرزاق الأطفال تتضاءل وتبتعد ويصعب الوصول اليها كلما ازدادوا اختياراً وارادةً واقتداراً .

نعم ، ان القناعة كنز للعيش الهنيئ الرغيد ومبعث الراحة في الحياة ، بينما الحرص معدن الخسران والسفالة كما يتبين ذلك من الحديث الشريف : «**القناعة كنز لا يفنىٰ**»

النتيجة الثالثة : ان الحرص يتلف الاخلاص ويفسد العمل الأخروي لأنه : لو وُجد حرص في مؤمن تقي لرغب في توجه الناس واقبالهم اليه ، ومن يرقب توجه الناس وينتظره لا يمكنه الوصول أبداً إلى الاخلاص التام ولا يمكنه الحصول عليه . فهذه النتيجة ذات أهمية عظمى جديرة بالدقة والملاحظة .

الحاصل : ان الاسراف ينتج عدم القناعة أي الطمع ، أما الطمع فيخبت وهج الشوق والتطلع الى العمل ويقذف بالانسان الى التقاعس والكسل ويفتح أمامه أبواب الشكوىٰ والحسرة في حياته حتى ليجعله يئن دوماً تحت مضض الشكوىٰ والسأم[1] . كما انه يفسد اخلاصه ويفتح دونه باباً للرياء والتصنع فيكسر عزته ويريه طريق الاستجداء والاستخذاء .

أما الاقتصاد فانه يثمر القناعة ، والقناعة تنتج العزة ، استناداً الى الحديث الشريف «**عزّ مَن قنع وذلّ مَن طمع**» . كما انه يشحذ الشوق بالسعي والعمل ويحث اليهما ويسوق سوقاً الى الكدّ وبذل الجهد فيهما لأنه : اذا ما سعىٰ المرء في يوم ما وتقاضىٰ أجره مساءً فسيسعىٰ في اليوم التالي له بسر القناعة التي توافرت لديه . أما المسرف فانه لا يسعىٰ في يومه الثاني لعدم قناعته وحتىٰ اذا سعىٰ فانه يسعىٰ دون شوق .

وهكذا فان القناعة المستفيضة من الاقتصاد تفتح باب الشكر وتوصد باب الشكوىٰ ، فيظل الانسان في شكر وحمدٍ مدىٰ حياته . فبالقناعة لا يتلفت القانع

---

(١) - نعم ، اذا قابلت مسرفاً فستسمع منه حتماً الشكاوي العريضة ، ومهما كان غنياً فلسانه يشكو لا محالة ، بينما اذا قابلت فقيراً قانعاً فلا تسمع منه الاّ الحمد والشكر لله .

الى توجـه النـاس وانتباههم لاستغنائه عنهم ، فينفتح أمامه باب الاخلاص وينغلق باب الرياء .

ولقـد شاهـدت الأضـرار الجسيمة والخسائر الفادحة التي تسفر عن الاسراف وعدم الاقتصاد شاهدتها متجسدة في نطاق واسع ممتد وهي كما يأتي :

جئت الى مدينة مباركة ـ قبل تسع سنوات ـ كان الموسم شتاءً فلم أتمكن من أن أرى منـابـع الثـروة وجـوانب الانتـاج في تلك المـدينـة ، قال لي مفتيها ـ رحمه الله ـ : ـ «ان أهالينا هنا فقراء مساكين» أعاد قوله هذا مراراً . أثّر فيّ هذا القول تأثيراً بالغـاً ممـا أجـاش عطفي ، فبت استرحم وأتألم لأهالي تلك المدينة فيما يقرب من ست سنـوات . وبعـد ثمـاني سنـوات عدت اليهـا وهي في أجواء الصيف ، وأجلت نظري في بساتينها وجلت ببصري في رياضها فتذكرت قول المفتي رحمه الله فقلت متعجباً :

ـ سبحـان الله ! ان محـاصيـل هذه البسـاتين وغلاتها تفوق حاجة المدينة بأسرها كثيراً وكان حرياً بأهاليها أن يكونوا أثرياء جداً ، . بقيت في حيرة من هذا الأمر . . . ولكن ادركت حينهـا حقيقـة ـ لم تخـدعني عنها المظاهر بل هي حقيقة استرشد بها في ادراك الحقائق وفهمها ـ ألا وهي : ـ

لقـد رُفِعَت البـركـة ـ من هذه المدينة ـ بسبب الاسراف وعدم الاقتصاد حتى حدا الأمـر بذلـك المفتي رحمه الله ان يقول قولته : «ان أهالينا هنا فقراء ومساكين» رغم هذا القدر الواسع من منابع الثروة وكنوز الموارد .

نعم انـه ثابت بالتجـربة وبالرجوع الى وقائع لا تحد بأن دفعَ الزكاة ، والأخذ بالاقتصاد سببان للبركة والاستزادة . بينما الاسراف ومنع الزكاة يرفعان البركة .

ولقد فسّر «ابن سينا» وهو أفلاطون فلاسفة المسلمين وشيخ الأطباء فسّر هذه الآية الكريمة : **«وكُلوا واشرَبوا ولا تُسرِفوا»** . من زاوية نظر الطب فقط بالأبيات الآتية :

«جمعتُ الطبَّ في بيتين جَمعاً ... وحُسن القولِ في قِصَر الكَلام
فقلّل إن اكلتَ وبَعد أكلٍ تَجنّب ... والشـفاءُ فـي الإنهضـام
وليس على النفوس أشـدُّ حالاً ... من إدخال الطعامِ على الطعام» .

واليكم هذا التوافق الغريب الباعث على الحيرة والجالب للعبرة :

انه مع قيام خمسة وستة من المستنسخين المختلفين ـ ثلاثة منهم لا يتقنون الكتابة ـ باستنساخ «رسالة الاقتصاد» فقد توافق كل (واحد وخمسين) ألفاً من ألفات كل نسخة ـ خالية من الدعاء ـ وكل (ثلاثة وخمسين) ألفاً ـ مع دعاء ـ رغم اختلاف امكنة اولئك المستنسخين واختلاف النسخ التى كانوا ينقلون منها واختلاف خطهم في الكتابة ومع عدم التفكر في تلكم الألفات إطلاقاً !.

فان توافق عدد الألفات مع تأريخ تأليف «رسالة الاقتصاد» واستنساخها وهو بالتاريخ الرومي واحدة وخمسون (١٣٥١) وبالتأريخ الهجري ثلاث وخمسون (١٣٥٣) لا يمكن ان يحال ذلك الى الصدفة دون ريب ، بل هو اشارة الى صعود البركة الكامنة في (الاقتصاد) الى درجة الكرامة . وانه لحرّي حقاً ان يطلق على هذا العام «عام الاقتصاد» .

نعم لقد أثبت الزمان فعلاً هذه الكرامة الاقتصادية وذلك عندما شهدت البشرية بعد عامين الحرب العالمية الثانية . . . تلك الحرب التي بثت الجوع والتخريب وضروب الاسراف المقيت في كل انحاء العالم مما أرغم البشرية على التشبث بالاقتصاد والألتفاف حوله عنوةً .

سُبحانك لا عِلَم لنا الاّ ما علَّمتَنا إنك انتَ العليمُ الحكيمُ

[المبحث الثاني من المكتوب الثاني والعشرين
من كتاب المكتوبات]

الحريص خائبٌ خاسرٌ

قال تعالىٰ :

«إنّ الله هو الرزّاقُ ذو القوةِ المتين»[1]

«وكأيّن مِن دابّةٍ لا تَحْمِلُ رِزْقَها اللهُ يَرزُقُها وإيّاكُم وَهُو السَّميعُ العَليمُ»[2] .

أيها المؤمن : لقد ادركتَ مما سبق[3] مدى ما تتركه العداوة والبغضاء من أضرار جسيمة ، فاعلم أن الحرص ايضاً داءٌ ـ كالعَداء ـ بل هو أضرُّ على الحياة الاسلامية وأدهى عليها . نعم ، الحرصُ بذاته سببُ الخيبة والخذلان ، وداءٌ وبيل ومهانة وذلة ، وهو الذي يجلب الحرمان والدناءة .

ان الشاهد القاطع على هذا الحُكم على الحرص ، هوما أصاب اليهود من الذلة والمسكنة والهوان والسفالة لشدة تهالكهم على حطام الدنيا أكثر من أية أمةٍ أخرى .

---

(١) ـ سورة الذاريات / ٥٨ .

(٢) ـ سورة العنكبوت / ٦٠ .

(٣) ـ اي في المبحث الأول من المكتوب نفسه وهو رسالة «الاخوة» التي تدعو أهل الايمان الى المحبة والإخاء . (المترجم) .

والحرص يُظهِر تأثيرَه السيء بدءاً من أوسع دائرة في عالم الاحياء وانتهاء الى أصغر فرد فيه ، بينما السعي وراء الرزق المكلل بالتوكل مدارُ الراحة والاطمئنان ويُبرز أثره النافع في كل مكان .

مثال ذلك : أن النباتات والاشجار المثمرة المفتقرة الى الرزق - وهي التي تعدّ نوعاً من الأحياء - تهرع اليها أرزاقها سريعةً وهي منتصبةٌ في أماكنتها متّسمة بالتوكل والقناعة دون أن يبدو منها أي أثر للحرص ، بل تتفوق على الحيوانات في تكاثرها وتربية ما تولّد من ثمرات . أما الحيوانات فلا تحصل على أرزاقها الاّ بعد جهد ومشقة وبكمية زهيدة ناقصة ، ذلك لأنها تلهث وراءها بحرص ، وتسعى في البحث عنها حثيثاً .

حتى اننا نرى في عالم الحيوان نفسه أن الارزاق تُسبغ على الصغار الذين يعبِّرون عن توكلهم على الله بلسان حالات ضعفهم وعجزهم ، فيُرسَل اليهم رزقُهم المشروع اللطيف الكامل من خزينة الرحمة الالهية . بينما لا تحصل الحيوانات المفترسة التي تنقضّ على فرائسها بحرص شديد الاّ بعد لأيٍ كبير وتحرٍ عظيم .

فهاتان الحالتان تبينان بوضوح : أن الحرص سبب الحرمان ، أما التوكل والقناعة فهما وسيلتا الرحمة والاحسان . ونرى الحال نفسه في عالم الانسان اذ اليهود الذين هم أحرص الناس على حياة ، ويستحبّون الحياةَ الدنيا على الآخرة ، بل يعشقونها حب العاشق الولهان حتى سبقوا الامم في هذا المجال ، قد ضُربت عليهم الذلة والمهانة ، والحقت بهم حملات القتل بيد الامم الاخرى . . كل ذلك مقابل حصولهم - بعد عناء طويل - على ثروة رَبَوية محرمَّة خبيثة ، لا ينفقون منها الا النزر اليسير ، وكأن وظيفتهم كنزَها وادخارَها فحسب . . فيبين لنا هذا الحال :

ان الحرص معدن الذلة والخسة والخسارة . . .

وهناك وقائع كثيرة ، وحوادث لا تدخل في الحصر بأن الحريص معرَّضٌ دائماً للوقوع في حومة الخسران ، حتى جرى «**الحريص خائب خاسر**» مجرى الامثال الشائعة . واتخذه الجميع حقيقة عامة في نظرهم .

فمـا دام الامـر هكـذا : ان كنت تحب المال حباً جماً وتطلب أن يأتيك وافراً فاطلبه بالقناعة دون الحرص .

ويمكن أن نشبّـه القـانعين من النـاس والحـريصين منهم بشخصين يدخلان مضيفـاً كبيـراً أعدهً شخص عظيم ذو شأن . . يتمنى أحدهما من أعماقه قائلا : «لو أن صاحب الـديـوان يأويني ـ مجـرد ايـواء ـ وأنجـو من شدة البرد الذي في الخارج لكفاني ، وحسبي ذلك . ولو سمح لي بأي مقعد متيسّر في أدنى موقع فهو فضل منه وكرم» . أما الآخر فيتصرف كأن له حقاً على الآخرين ، وكأنهم مضطرون أن يقوموا له بالاحتـرام والتـوقير ، لذا يقول في أعماقه بغرور : «على صاحب الديوان أن يوفّر لي أرفـع مقعـد وأحسنـه» . وهكـذا يدخـل الديوان وهو يحمل هذا الحرص ويرمق المواقع الرفيعة في المجلس ، الا أن صاحب الديوان يرجّعه ويردّه الى أدنى موقع في الـمـجلس ، وهــو بدوره يمتعض ويستــاء ويمتلئ صدره غيظــاً على صاحب الديوان . ففي الوقت الذي كان عليه أن يقدّم الشكر الذي يستوجبه ، قام بخلاف ما يجب عليـه ، وأخـذ بانتقـاد صاحب الـديـوان ، فاستثقله صاحبُ الديوان بينما رحّب بالشخص الاول الـذي دخـل الـديـوان وهو يشعّ تواضعاً يلتمس الجلوس في أدنى مقعـد متـوفـر ، إذ سرَّته هذه القناعة البادية منه والتي بعثت في نفسه الانشراح والاستحسان وأخذ يرقيه الى أعلى مقام وأرقاه . وهو بدوره يستزيد من شكره ورضاه وامتنانه كلما صعدت به المراتب .

وهكذا الدنيا ، ديوانُ ضيافة الرحمن . فوجه الارض سُفرة الرحمة المبسوطة ومائدة الرحمن المنصوبة . ودرجات الارزاق ومراتب النعمة بمثابة المقاعد المتباينة .

ان سوء تأثير الحرص ووخامة عاقبته يمكن أن يشعر به كل واحد ، حتى في أصغر الامور وأدقها جزئية .

فمثـلا : يمكن أن يشعـر كل شخص استيـاءً واستثقالاً في قلبه تجاه متسّول يلح عليه بحرص شديد ، حتى أنه يردّه ، بينما يشعر اشفاقاً وعطفاً تجاه متسول آخر وقف صامتاً قنوعاً ، فيتصدق عليه ما وسعه .

ومثلا : اذا أردت أن تغفو في ليلة أصبتَ فيها بالأرق . . فانك تهجع رويداً رويـداً ان أهملتـه ولم تبـال به . ولكن ان حرصت على النـوم وقلقت عليـه وأنت تتمتم : تُرى متى أنام ؟ أين النوم مني ؟ . . لتبدَّد النوم ولفقدتَه كلياً .

ومثـلا : تنتظـر أحـدُهم بفارغ الصبر ، وأنت حريص على لقائه لأمر مهم ، فتبدأ بالقلق قائلا : لِمَ لم يأت . . ما بالُه تأخر ؟ وفي النهاية: يزيح الحرصُ الصبرَ من عنـدك ، ويضطـرك الى مغـادرة مكـان الانتظـار يائساً . واذا بالشخص المنتظر يحضر بعد هنيهة ، ولكن النتيجة المرجوة قد ضاعت وتلاشت .

ان السر الكامن في أمثال هذه الحوادث وحكمتها هو :

مثلمـا يتـرتب وجـود الخبـز على أعمـال تتم في المـزرعـة ، والبيـدر ، والطـاحـونـة ، والفـرن ، فان ترَتب الاشياء كذلك يقترن بحكمة التأنّي والتدرج ، ولكن الحريص ـ بسبب حرصه ـ لا يتأنّىٰ في حركاته ولا يراعي الدرجات والمراتب المعنـويـة الموجودة في ترتب الاشياء . فإما أنه يقفز ويطفر فيسقط ، أويدع احدى المراتب ناقصاً فلا يرتقي لغايته المقصودة .

فيـا أيهـا الاخـوة المشـدوهون من هموم العيش والهائمون في الحرص على الـدنيـا : كيف ترضـون لأنفسكم الذلة والمهانة في سبيل الحرص ـ مع أن فيه هذه الاضـرار والبـلايـا ـ وتقبلون على كل مالٍ دون أن تعبأوا أهـوَ حلال أمْ حرام ؟ وتضحون في سبيل ذلك أموراً جليلة وأشياء قيّمة تستوجبها الحياة الاخروية ، حتى أنكم تَدَعون في سبيل الحرص ركناً مهماً من أركان الاسلام ألا وهو «الزكاة» ، علماً أنهـا باب عظيم تفيض منـه البَـركـة والغنى على كل فرد ، وتـدفـع عنـه البـلايـا والمصـائب . فالـذين لا يؤ دون زكـاة أمـوالهم لا محـالـة يفقـدون أمـوالا بقـدرها ويبددونها إما في أمور تافهة لا طائل وراءها ، أو تلمُّ بهم مصائب تنتزعها منهم انتزاعاً .

ولقـد سُئلت سؤ الا في رؤ يـا خيـاليـة عجيبـة ذات حقيقة ، وذلك في السنة الخامسة من الحرب العالمية الاولى ، والسؤ ال هو :

«مـا السـر الكـامن في هذا الفقر والخصاصة الذي أصاب الامة الاسلامية ، ومـا السـر في التلف الـذي أصـاب أمـوالهم وأهـدرهـا ، وفي العناء والمشاق التي

رزحت تحته أجسادهم ؟

وقد أجبت عن السؤال في رؤياي بما يأتي :

«ان الله تعالى قد فرض علينا فيما رزقنا من ماله العُشر[1] في قسم من الاموال وواحداً من أربعين[2] في قسم آخر كي يجعلنا ننال ثوابَ أدعيةٍ خالصة تنطلق من الفقراء ، ويصرفنا عما تُوغر في صدورهم من الضغينة والحسد . الا أننا قبضنا أيدينا حرصاً على المال فلم نؤدّ الزكاة . فاسترجع سبحانه وتعالى تلك الزكاة المتراكمة علينا بنسبة ثلاثين من أربعين وبنسبة ثمانية من عشرة .

وطلب سبحانه منا أن نصوم لأجله ونجوع في سبيله جوعاً يتضمن من الفوائد والحكم ما يبلغ السبعين فائدة . طلبه منا أن نقوم به في شهر واحد من كل سنة ، فعزَّت علينا أنفسُنا وأخذتنا الرأفة بها عن غير حق ، وأبينا أن نطيق جوعاً ممتعاً مؤقتاً ، فما كان منه سبحانه الاّ مجازاتنا بنوع من صوم وجوع له من المصائب ما يبلغ السبعين مصيبة ، وأرغمنا عليه طوال خمس سنوات متتالية .

وكذا ، طلب منا سبحانه نوعاً من تنفيذ الاوامر والتعليمات الربانية الطيبة المباركة السامية النورانية نؤديها في ساعة واحدة من بين أربع وعشرين ساعة . فتقاعسنا عن أداء تلك الصلوات والادعية والاذكار ، فأضعنا تلك الساعة الواحدة مع بقية الساعات . فكان منه أن كفَّر عنا سبحانه بما بدا منا من سيئات وتقصيرات ، وجعلَنا نُرغَم على أداء نوع من العبادة والصلاة بتلقين التعليمات والتدريب ومن كرّ وفر وعَدْوٍ واغارة وما الى ذلك . . في غضون خمس سنوات متتابعة» .

نعم ! هكذا قلت في تلك الرؤيا . ثم أفقت منها ، وفكرت متأ[illegible] وتوصلت الى حقيقة مهمة جداً تضمنتها تلك الرؤيا الخيالية وهي :

---

(١) ، (٢) لخصّ المؤلف هذه الاصناف من الأموال خلاصة وافية لم اتمكن ان اعطي[illegible] بالترجمة وهي مفصلة في كتب الفقه .

«المترجم

ان هنـاك كلمتين اثنتين همـا منشأ جميـع ما آلت اليـه البشـريـة في حيـاتهم الاجتماعية من ترد في الاخلاق وانحطاط في القيم ، وهما منبع جميع الاضطرابات والقـلاقـل . وقـد بينـاهمـا واثبتنـاهمـا في (الكلمة الخامسة والعشرين) من كتاب (سـوزلـر) الكلمـات ، عنـد عقـدنـا المـوازنة بين الحضارة الحديثة واحكام القرآن الكريم . والكلمتان هما :

الكلمة الاولى : اذا بتّ شبعانَ ، فليهلك الآخرون ولا أبالي .

الكلمة الثانيـة : اِسعَ أنت لأقبض أنا الأُجرة .

وأن الذي يديم هاتين الكلمتين ويغذّيهما هو : جريان الربا ، وعدم أداء الزكاة .

وأن الحـل الـوحيد والدواء الناجع لهذين المرضين الاجتماعيين هو : تطبيق الـزكـاة في المجتمـع وفرضها فرضاً عاماً . وتحريم الربا كلياً . لأن أهمية الزكاة لا تنحصر في أشخاص وجماعات معينة فقط ، بل أنها ركن مهم في بناء سعادة الحياة البشـريـة ورفـاهـا جميعـاً ، بل هي عمـود أصيـل تتـوطد به ادامة الحياة الحقيقة للانسـانيـة ، ذلـك لأن في البشـريـة طبقتين : الخـواص والعـوام . والزكاة تؤمّن الـرحمْـة والاحسـان من الخـواص تجاه العوام وتضمن الاحترام والطاعة من العوام تجاه الخواص . والاّ ستنهال مطارق الظلم والتسلط على هامات العوام من أولئك الخـواص ، وينبعث الحقـد والعصيـان اللذان يضطـرمـان في أفئـدة العـوام تجـاه الاغنيـاء المـوسرين . وتظل هاتان الطبقتان من الناس في صراع معنوي مستديم ، وتخـوضـان غمـار معمعـة الاختـلافات المتناقضة ، حتى يؤول الامر تدريجياً الى الشروع في الاشتباك الفعلي والمجابهة حول العمل ورأس المال كما حدث في روسيا .

فيـا أهـل الكـرم وأصحـاب الـوجدان ، ويا أهل السخاء والاحسان ! إن لم تقصـدوا بالاحسـانـات التي تدفعـونهـا نيّـةَ الـزكاة ، ولم تكن باسمها فان لها ثلاثة أضـرار ، بل قد تتـلاشى سدىً دون نفـع ، ذلك لأنكم ان لم تمنحوها وتحسنوا بها في سبيـل الله وبـاسم الله فانكم بلا شك ستبـدون منّـةً وتفضـلا ـ معنىً ـ فتجعلون الفقيـر المسكين تحت أسـارة المنّة وتكبلوه بأغلالها . ومن ثم تظلون محرومين من

دعائه الخالص المقبول ، فضلا عن أنكم تكونون جاحدين بالنعمة لما تظنون أنكم أصحاب المال . وفي الحقيقة لستم الا مستخلَفين مأمورين تقومون بتوزيع مال الله على عباده . ولكن اذا أديتم الاحسان في سبيل الله باسم الزكاة فانكم تنالون ثواباً عظيماً ، وتكسبون أجراً عظيماً ، لأنكم قد أديتموه في سبيل الله . وأنتم بهذا العمل تبدون شكراً للنعم التي أسبغها الله عليكم . فتنالون الدعاء المقبول من ذلك المحتاج المعوز حيث لم يضطر الى التملّق والتخوف منكم فاحتفظ بكرامته وابائه فيكون دعاؤه خالصاً .

نعم أين ما تُمنح من أموال بقدر الزكاة - بل أكثر منها - والقيام بحسنات بشتى صورها ودفع صدقات مع اكتساب أضرار جسيمة أمثال الرياء والصيت مع المنّة والاذلال ، من أداء الزكاة والقيام بتلك الحسنات بنيتها في سبيل الله ، واغتنام فضل القيام بفريضة من فرائض الله ، وكسب ثواب منه سبحانه ، والظفر بالاخلاص والدعاء المستجاب . ألا شتّان بين العطاءين !

(سُبحانَك لا عِلمَ لنا الاّ ما عَلّمتَنا إنكَ أنتَ العليمُ الحكيمُ)

اللهم صل على سيدنا محمد الذي قال : المؤمنُ للمؤمن ن المرصوص يشد بعضه بعضاً . وقال : القناعة كنز لا يفنى . وعلى آ أجمعين . . آمين والحمد لله رب العالمين .



[من المقام الثاني من رسالة « الحجة الزهراء »]

الآجال معيّنة و الارزاق مقنّنة

ان الآجال والارزاق اللذين يبدوان بظاهر الأمر كأنهما مُبهمان وغير معيّنان ، الّا انهما في الواقع مقدَّران تحت ستار إبهام في دفتر القضاء والقدر الازلي ، وفي صحيفة المقدّرات الحياتية . فالأجلُ المحتوم لكل ذي حياة مقدّرٌ ومعيّنٌ لا يتقدم ساعة ولا يتأخر ، ورزقُ كل ذي روح قد عيّن وخصصّ ، ومكتوبٌ كل ذلك في لوح القُضاء والقدر .

وهناك ما لا يحد من الأدلة على هذا الحكم ، منها :

ان موت شجرة ضخمة وتوريثها بذرتَها التي هي بمثابة نوع من روحها ، للقيام بمهامها التي كانت تؤديها ، لا يتم الّا بقانون حكيم لعليم حفيظ . . .

وان ما يتدفق من الأثداء من لبن خالص رزقاً للصغير ، وخروجَه من بين فَرثٍ ودمٍ دون اختلاط او امتزاج ، صافياً طاهراً ، وسيلانَه الىٰ فمه ، ليردّ رداً حازماً احتمال وقوعه بالمصادفة ، ويبيّن تحققه في غاية القطعية انه من جراء دستور ذي شفقة موضوعة من لدن رزّاق عليمٍ رحيم . وقس سائر ذوي الحياة وذوي الارواح علىٰ هذين النموذجين الجزئيين .

ففي حقيقة الأمر أن الأجل معيّن مقدَّر ، والرزق كذلك ، وقد أُدرج في سجل المقدّرات وجُعلت له ساعة معينه لكل واحد . ولكنهما يبدوان - في الظاهر - متواريين خلف حجاب الغيب ، ومتعلقين في خيوط الابهام غير المرئية ، ويظهران كأنهما غير معينيين فعلاً ، وكأنهما مشدودان الىٰ المصادفة . . . كل ذلك لأجل حكمة دقيقة وفي غاية الأهمية . ! اذ لو كان الأجل معيناً كغروب الشمس لكان الأنسان يقضي شطر عمره في غفلة مطبقة ، ويضيّعه ، عازفاً عن السعي للآخرة ، ومن ثم يتورط في الشطر الآخر بخضم المخاوف المذهلة ، ويكون كمن يخطو خطوة كل يوم نحو اعواد المشانق ، ولكانت المصيبة المندرجة في الأجل تتضاعف بالمئات ! . ولأجل هذا السر الدقيق أُبقَيت المصائب - التي تعاود الأنسان عادةً - تحت ستار الغيب . بل حتىٰ أن أجل الدنيا الذي هو القيامة قد أخفاه سبحانه - رحمةً منه ورأفة - خلف حجاب الغيب للسبب نفسه .

اما الرزق ، فلكونه أعظم خزينة تفيض بالنعم بعد نعمة الحياة . . . واغنى منبع يعّب بالشكر والحمد . . وأجمع كنز للعبودية والدعاء وضروب الرجاء ، فقد عُرض في صورته الظاهرة كأنه مبهمٌ ومشدود الىٰ المصادفة ؛ وذلك لئلا يوصَد باب طلب الرزق بالدعاء من الرزاق الكريم في كل حين ، ولئلا ينغلق باب الالتجاء والتوسل المشفعة بالحمد والشكر لله تعالىٰ ، اذ لو كان الرزق معيناً - كشروق الشمس وغروبها - لكانت ماهيتُه متغيرة كلياً ، ولكانت أبواب الرجاء ومنافذ التضرع ومعارج الدعاء الملفّعة كلها بالشكر الجميل والرضىٰ الحسن قد أنسدت عن آخرها ، بل لكانت ابواب العبودية الخاشعة الضارعة قد انغلقت نهائياً .

الحضارة التي افقرت البشرية

[بيّن الاستاذ بديع الزمان سعيد النورسي في احدى رسائله التي بعثها الى طلابه هذه الحقيقة التي تخص الاقتصاد والقناعة والاسراف .]

سؤال : «لقد كنتَ ـ فيما مضى ـ اثناء تجوالك بين العشائر البدوية في شرق الاناضول ـ تدعوهم الى التحضر وتحثهم بلهفة وشوق الى التمدن والرقي في مجالات حياتهم ، فلماذا انسللت ـ منذ نحو أربعين سنة ـ من المدنية الحاضرة ووصفتها بأنها دنّية وليست مدنية (أي بدون ميم) وجانبت الحياة الاجتماعية وأقحمت نفسك في العزلة والانزواء ؟ .» .

الجواب : ان المدنية الحاضرة الغربية ، لسلوكها طريقاً مناقضاً لأسس دساتير السماء وقيامها بمناهضتها ، فقد طفح كيل سيئاتها على حسناتها وثقلت كفة اضرارها على فوائدها . فلقد اضطرب أمنُ الناس واطمئنانهم ، وقلقت راحتُهم ، وأسنت سعادتُهم الحقيقية فاختل ما هو مطلوب من المدنية ومقصود منها . حيث قد حلّت نوازع الاسراف والسفاهة بسببها محل بوادر الاقتصاد والقناعة ، واستمرأت

ميولُ الكسل والدعة مرعى السعي والعمل . ولقد ألبست ـ هذه المدنية ـ البشرية المسكينة لباس الفقر المدقع وكستها بأثواب الكسل والتقاعس الرهيب .

واستناداً الى ما قامت به «رسائل النور» من ايضاح الدستور الذي يخاطب به القرآن الكريم في ندائه العلوى :

« وكُلوا واشرَبوا ولا تُسرفوا . . . »[1]

وكذلك في قوله تعالىٰ :

« وأنْ ليسَ للإنسانِ الاّ ما سَعىٰ . . . »[2]

فقد أشارت ـ تلك الرسائل ـ مستضيئة بنور الآيتين المذكورتين ـ الى ان سعادة حياة البشرية منوطة بالاقتصاد وعدم الاسراف ، وعلى اثارة الهمم للسعي والعمل والكدّ . . وانه بهذين الشرطين يتم التآلف والوئام بين طبقتي البشرية : الخواص والعوام ـ . لذا سأتحدث عن مسألتين لطيفتين ـ نكتتين ـ قصيرتين وهما كالآتي :

أولاهـا :

كان البشر في البداوة يعوزه ثلاثة أو أربعة اشياء ، وكان اثنان من كل عشرة اشخاص يعجزان عن تدارك تلك الاشياء الثلاثة أو الاربعة . بينما في الوقت الحاضر وتحت سطوة المدينة الغربية المستبدة ، المتميزة : باثارة سوء الاستعمال ، والدفع الى الاسراف ، وتهييج الشهوات ، وادخال الحاجات والمطالب غير الضرورية في حكم المطالب والحاجات الضرورية . فقد اصبح الانسان العصري من حيث حب التقليد والإدمان مفتقراً الى عشرين حاجة بدلاً من اربع منها ضرورية . وقد لا يستطيع الاّ شخصين من كل عشرين شخص ان يلبّوا تلك الحاجات العشرين من مصدر حلال وبشكل مباح . ويبقى الآخرون (الثماني

---

(١) ـ سورة الاعراف / ٣١ .

(٢) ـ سورة النجم / ٣٩ .

عشرة) محتـاجون ومفتقرون . فهذه المدنية الحاضرة اذاً تجعل الانسان فقيراً جداً ومعوزاً دائماً ، ولقد ساقت البشرية ـ من جهة تلك الحاجة ـ الى مزيد من الكسب الحرام ، والى ارتكـاب انـواع من الظلم والغبن ، وشجعت طبقة العوام المساكين الى الصـراع والتخـاصم المستمـر مع الخـواص ، وذلـك بهجرها القانون الاساس الـذي سنّه القـرآن الكـريم والقـاضي بوجـوب الـزكـاة وتحـريم الربا والذي يُؤمّن بواسطتهـا توفيـر العامة للخاصة ، ويوفّر بهما شفقة الخاصة على العامة . فبهجرها ذلـك القـانـون الاسـاس أرغمت البـرجوازيين على ظلم الفقراء وهضم حقوقهم ، وأجبرت الفقراء على العصيان والتمرد في معاملتهم معهم . فدمّرت سعادة البشرية وراحتها وأمنها واطمئنانها وجعلتها اثراً بعد عين .

النكتة الثانيـة :

ان ما انجزته هذه المدينة الحاضرة من خوارق ـ في ساحة العلم ـ نِعمٌ ربانية تستـدعي شكـراً خالصـاً من الانسـان على ما أُنعم عليـه ، وتقتضي منـه كذلـك استخداماً ملائماً لها لفائدة البشرية ومنفعتهم . بيد اننا نرى الآن خلاف ذلك ؛ اذ تقـود تلك الخـوارق قسمـاً من الناس ـ الذين لهم اهمية بالغة في الحياة ـ وتوردهم موارد الكسـل والسفـاهـة . . . اذ انهـا تزكّي نار الاهواء النفسانية ، وتثير كوامن النزعات الشهوانية فتُقعِد الانسانَ عن الكّد والسعي وتثنيه عن الشوق الى العمل ، وتسوقه بعدم القناعة وعدم الاقتصاد الى السفاهة والاسراف والظلم وارتكاب المحرمات .

نُورد مثالاً على ذلك : (مثلما ذكر في رسالة «مفتاح عالم النور») .

الـراديـو نعمـة آلهيـة عظيمـة على البشرية ، فبينما تقتضي منّا شكراً معنوياً عليهـا ـ وذلـك باستخـدامهـا لصالح البشرية كافة ـ نرى أربعة أخماس استعمالاتها تُصـرف في إثـارة الاهواء النفسانية ، والى امور تافهة لا تعنى الانسان في شئٍ ، فتجتث جذور شوق الإنسـان الى السعي وتُـوقعـه في الكسـل والإخـلاد الى الراحة والاستمتاع بالاستماع اليها ، حتىٰ يدع الانسانُ وظيفـة حيـاته الحقيقية . وفي

الوقت الذي يلزم توجيه قسم من الوسائط والوسائل الخارقة النافعة وصرفها في تيسير مصالح البشرية الحقيقية واستخدامها في سبيل السعي والعمل لأجل خير البشرية ودفع حاجاتها الحقيقية وتذليل مشاقها ، فقد رأيتُ بنفسي ، انها لا تُصرف الاّ الى واحد واثنين من عشرة في تلبية تلك الحاجات الضرورية وتُساق الثمانية الباقية من العشرة الى اللهو والاسترسال في اثارة الهوى والاسترخاء والدعة والكسل وقضاء الوقت .

وهناك ألوف الامثلة على هذين المثالين الجزئيين .

وحاصل الكلام :

ان المدنّية الغربية الحاضرة لا تلقي السمعَ كلياً الى الأديان السماوية ؛ لذا أوقعت البشرية في فقرٍ مدقع ، وضاعفت من حاجاتها ومتطلباتها ، وهي تتمادى في تهييج نار الإسراف والحرص والطمع عندها بعد أن قوضت أساس الاقتصاد والقناعة ، وفتحت أمامها سُبل الظلم وارتكاب المحّرمات . زد على ذلك فقد ألقت - بذلك - الانسان المحتاج المسكين في احضان الكسل والتعطل المدمّر ، بعد ان شجعته على وسائل السفاهة . وهكذا بددت الشوق لديه الى السعي والعمل ، فأضاع الانسان عمره الثمين سدىً باتباعه هوى المدنية الحاضرة وسيره وراء سفاهتها ولهوها .

زد على ذلك فقد ولّدت المدنية في ذلك الانسان المعوز العاطل أمراضاً وأسقاماً وعللاً ، إذ اصبحت وسيلةً ، الى انتشار مئات من الأوبئة والامراض في أرجاء المعمورة . بثها في الاوساط بسوء الاستعمال والإسراف .

[المسألة الخامسة من المكتوب الثامن والعشرين]
من كتاب « المكتوبات »

رســالة

الشــــكر



بسم الله الرحمن الرّحيم
وإنْ مِنْ شَيءٍ إلاّ يُسَبِّحُ بِحَمدِهِ

يفيض القرآن الكريم ببيانه المعجز ويحثّ على الشكر في آيات كثيرة ، منها هذه الآيات التاليات :

أفَلا يَشْكُرون . . . أفلا يَشْكُرون

وَسَنجزي الشّاكِرينَ

لَئِنْ شَكَرتُم لأزيدَنّكُم

بل الله فَاْعُبدْ وكُنْ مِن الشّاكرين .

ويبيّن منهـا : أن اجـلّ عمـلٍ يطلُبه الخالقُ الرحيم من عباده هو : الشُكر . فيدعو الناس الى الشكر دعوة صريحة واضحة ويوليه أهمية وامتيازاً خاصاً ، باظهاره أن الاستغناء عن الشكر إنْ هو الاّ تكذيب للنعم الآلهية وكفران بها ، ويهدّد إحدى وثلاثين مرة في سورة «الرحمن» بالآية الكريمة : «**فَبِأي آلاء رَبِّكُما تُكَذِّبان**» تهديداً مُرعباً ، ويُنـذر الجن والإنس إنـذاراً مهـولاً ببيـانه : أن عدم الشكر والإعراض عنه تكذيبٌ وإنكار وجحود .

ومثلمـا يبيّن القـرآن الحكيم أن الشكـر نتيجة الخلق ، والغاية منه ، فالكون الـذي هو بمثـابـة قرآن كبيـر مجسّم يُظهـر أيضـاً أن اهمّ نتيجة لخلق الكائنات هي الشكر ؛ ذلك لأنه اذا ما أُمعن النظر في الكائنات لتبيّن :

ان هيأة الكون ومحتوياته قد صُممت بشكل ، ووُضعت على نمط ، بحيث تنتج الشكر ، وتُفضي اليه ، فكل شئ متطلّع ومتوجّه - من جهة - الى الشكر . حتى كأن أهم ثمرة في شجرة الخلق هذه هي الشكر ، بل كأن أرقى سلعة من بين السلع التي ينتجها مصنع الكون هذا هي الشكر ؛ ذلك لأننا نرى :

ان موجودات العالم قد صُممت بطراز يشبه دائرة عظيمة ، وخُلقت الحياة لتمثل نقطة المركز فيها فنرى : ان جميع الموجودات تخدم الحياة وترعاها وتتوجه اليها ، وتتكفل بتوفير لوازمها ومؤنها . **فخالق الكون اذن يختار الحياة ويصطفيها من بين موجوداته !**

ثم نرى : ان موجودات عوالم ذوى الحياة هي الاخرى قد أُوجدت على شكل دائرة واسعة بحيث يتبوأ الانسانُ فيها مركزها ؛ فالغايات **المرجّوة** من الاحياء - عادة - تتمركز في هذا الانسان . فالخالق الكريم سبحانه يحشّد جميع الأحياء حول الانسان ويسخّر الجميع لأجله وفي خدمته ، جاعلاً من هذا الانسان سيداً عليها وحاكما لها . **فالخالق العظيم اذن يصطفي الانسان من بين الاحياء بل يجعله موضع إرادته ونصبَ اختياره .**

ثم نرى : ان عالم الانسان - بل عالم الحيوان ايضاً - يتشكل بما يشبه دائرة كذلك ، وقد وُضع في مركزها «الرزق» ، وغرز الشوق الى الرزق في الانسان والحيوانات كافة ، فنرى أنهم قد أصبحوا جميعاً بهذا الشوق خَدَمة الرزق والمسخَّرين له . فالرزق يحكمهم ويستولى عليهم . ونرى الرزق نفسه قد جُعل خزينة عظيمة لها من السعة والغنى ما لو تجمعت نِعَمه فلا تعد ولا تحصى (حتى نرى اللسان وحده قد زوّد بأجهزة دقيقة وموازين معنوية حساسة بعدد المأكولات والمطعومات لمعرفة أذواقها وطعومها **فحقيقة الرزق اذن هي أعجب حقيقة في الكائنات واغناها ، واغربها ، وأحلاها ، وأجمعها .**

ونرى كذلك : أنه مثلما يحيط كل شئ بالرزق ويستشرفه ويتطلع اليه ، فالرزق نفسه ايضاً - بأنواعه جميعاً - قائم بالشكر معنىً ومادةً وحالاً ومقالاً ، ويحصل بالشكر ، وينتج الشكر ، ويبيّن الشكر ويُريه لان : اشتهاء الرزق

والإشتياق اليه نوعٌ من شكر فطري . أما الالتذاذ والتذوق فهما شكرٌ ايضاً ، ولكن بصورة غير شعورية ـ حيث تتمتع الحيوانات كافة بهذا الشكر ـ بيد أن الانسان هو المخلوق الوحيد الذي يغيّر ماهية ذلك الشكر الفطري بانسياقه الى الضلالة والكفر ، فيتردى من الشكر الى الشرك .

ثم ان ما تحمله النعم ـ التي هي الرزق بعينه ـ من صورٍ جميلة زاهية بديعة ، ومن روائح زكية طيبة شذية ، ومن طعومٍ لذيذة ومذاقات طيبة ، ما هو الاّ دعاة وأدلاّء الى الشكر . فهؤلاء الأدلاّء والدعاة المنادون يثيرون ـ بدعواهم ـ الشوقَ لدى الاحياء ، ويحضّونهم عليه ، ويدفعونهم ـ بهذا الشوق ـ الى نوع من الاستحسان والتقدير والاحترام فيقروّن فيهم شكراً معنوياً . ويلفتون أنظار ذوي الشعور الى التأمل والإمعان فيها فيرغّبونهم في الاستحسان والاعجاب .

اي ان تلك النعم السابغة عليهم تكون وسائل إثارة للتقدير والاعجاب والاحترام لديهم ، فتُرشدهم تلك النِعم طريقَ الشكر القولي والفعلي وتدلّهم عليه وتجعلهم من الشاكرين ، وتذيقهم من خلال الشكر أطيبَ طعمٍ وألذهُ وأزكى ذوق وأنفسه وذلك بما تُظهر لهم بأن :

هذا الرزق اللذيذ او النعمة الطيبة ، مع لذته الظاهرة القصيرة الموقتة يهب لك ـ بالشكر ـ التفكر في الالتفات الرحماني الذي يحمل لذة وذوقاً حقيقيين ودائميين وغير متناهيين ، اي ان الرزق بتذكيره بالتفات الكريم المالك لخزائن الرحمة الواسعة ـ تلك الالتفاته والتكرمة التي لاحدَّ للذتها ولا نهاية لمتعتها تذيق الانسان بهذا التأمل نشوة معنوية من نشوات الجنة الباقية وهو بعدُ لم يغادر هذه الدنيا .

وفي الوقت الذي يكون الرزق بوساطة الشكر خزينة واسعة جامعة تطفح بالغناء والمتعة ، يتردى تردياً فظيعاً جداً بالتجافي عن الشكر والاستغناء عنه .

ولقد بيّنا في «الحكمة السادسة»[1] : ان عمل القوة الذائقة في اللسان إن كان متوجهاً الى الله سبحانه وفي سبيله ـ أي عندما تتوجه الى الرزق أداءً لمهمة

---

(١) ـ نشرت في كتاب «قطوف من أزاهير النور» تحت عنوان «التجارة الرابحة» . (المترجم) .

الشكـر المعنـوي ـ تكـون تلك القوة والحاسة في اللسان بمثابة مشرف موقّر شاكر ، وتكون بحكم ناظر محترم حامد ، على مطابخ الرحمة الآلهية المطلقة . ولكن متىٰ ما قامت بعملها رغبةً في هوى النفس الأمارة بالسوء واشباعاً لنهمها ـ أي اذا توجهت الى النعمـة مع عدم تذكـر شكـر المُنعم الـذي أنعم عليـه بالرزق ـ تهبط تلك القوة الذائقة في اللسان من ذلك المقام السامي ، مقام الراصد الأمين ، الى درجة بوّاب مصنـع البطن ، وحـارس اسطبـل المعـدة ، ومثلمـا ينتكس خادمُ الـرزق هذا الى الحضيض بالاستغنـاء عن الشكـر ، فمـا هيـة الرزق نفسها وخدام الرزق الآخرون كذلك يهوون جميعاً بالنسبة نفسها من أسمى مقام الى ادناه ، بل حتىٰ يتدنى الى وضع مباين تماماً لحكمة الخالق العظيم .

ان مقيـاس الشكـر هو : القنـاعـة ، والاقتصـاد ، والرضا ، والامتنان . أما مقيـاس عدم الشكـر والاستغنـاء عنـه فهو : الحرص ، والاسراف ، وعدم التقدير والاحترام ، وتناول كل ما هب ودّب دون تمييز بين الحلال والحرام .

نعم ان الحـرص مثلمـا أنـه عزوف وإعـراض عن الشكـر ، فهـو ايضـاً قائـد الحرمان ووسيلة الذل والإمتهان . حتى كأن النملة ـ تلك الحشرة المباركة المالكة لحيـاة اجتمـاعية ـ تُداس تحت الاقدام وتنسحق ، لشدة حرصها وضعف قناعتها ، اذ بينما تكفيها بضع حبات من الحنطة في السنة الواحدة تراها تجمع ألوف الحبات ـ اذا ما قدّر لهـا ـ أمـا النحلة الطيبـة ، فتجعلهـا قنـاعتهـا التـامّـة ان تطير عالياً فوق الـرؤوس ، حتىٰ انهـا تقنـع برزقها وتقدّم العسل الخالص للانسان احساناً منها بأمر الآله العظيم جل جلاله .

نعم ان إسم «**الرحمن**» الذي هو من أعظم أسمائه سبحانه وتعالىٰ يعقب لفظ الجلالة «**الله**» الذي هو الاسم الاعظم والاسم العَلَمُ للذات الأقدس . فهذا الاسم «**الـرحمن**» يشمـل برعـايتـه الـرزق لذا يمكن الوصول الى انوار هذا الاسم العظيم بالشكر الكامن في طوايا الرزق . علماً ان أبرز معاني «**الرحمن**» هو الرزق .

ثم ان وسائل ابداء الشكر وإظهاره انواع مختلفة ، الّا أن أجمع تلك الانواع واشملها والتي هي فهرسها العام هو : **الصلاة !**.

وفي الشكر ايمان صافٍ رائق ، وهو يحوى توحيداً خالصاً ؛ لأن الذي يأكل تفاحة ـ مثلاً ـ باسم الله ويختم أكلها بـ «الحمد لله» فإنما يعلن الشكرَ بعمله هذا ، على ان تلك التفاحة تذكار خالص صادر مباشرةً من يد القدرة الآلهية ، وهي هدية مهداة مباشرة من خزينة الرحمة الآلهية . . . فهو بهذا القول ـ وبالاعتقاد به ـ يسلّم كلَّ شئ ـ جزئياً كان أم كلياً ـ الى يد القدرة الآلهية ، ويُدرك تجلّى الرحمة الآلهية في كل شئ . ومن ثم يُظهر ايماناً حقيقياً بالشكر ، ويبيّن توحيداً خالصاً به .

وسنبين هنا وجهاً واحداً فقط من بين وجوه الخسران الكثيرة التي يتردى اليها الانسان الغافل من جراء كفرانه النعمة وكنوده بها .

اذا تناول الانسان نعمةً لذيذة ، ومن ثم أدىّ شكره عليها ، فان تـ[illegible] ـمة تصبح ـ بوساطة ذلك الشكر ـ نوراً وضّاءً له ، وتغدو ثمرة من ثمار الجنة [illegible] وفضلاً عما تمنحه من لذة ، فان التفكر في أنها أثرٌ من آثار التفات رحمة الله وتكرمة منه سبحانه وتعالى يمنح تلك النعمة لذةً عظيمة دائمة وذوقاً سامياً [illegible] فيكـون الشـاكـر قد بعث أمثـال هذه اللّبـاب الخالصة والخلاصات الـ[illegible] ـواد المعنوية الى تلك المقامات السامية الرفيعة ، تاركاً موادّها المهملة وقـ[illegible] استنفـدت اغـراضهـا وأدّت وظيفتهـا ولم تعـد اليهـا حاجة ـ يتم تحولهـ[illegible] ـى نفايات وفضلات تعود الى أصلها من العناصر الاولية .

ولكن اذا لم يشكـر المنعم عليـه ، ربَّـه على النعمة ، واستنكف عـ[illegible] تلك اللذة الموقتة تترك بزوالها لها ألماً وأسفاً ، وتتحول هي نفسها الى [illegible] فتنقلب تلك النعمة التي هى ثمينة كالماس الى فحم خسيس .

فالأرزاق الزائلة تثمر بالشكر لذائذ دائمة وثمرات باقية ، أما النعـ[illegible] الشكـر فانهـا تنقلب من صورتهـا السـاميـة الجميلة الـزاهيـة الى صورة [illegible] دميمة ؛ ذلك لان الغافل يظن ان مآل الرزق بعد اقتطاف اللذة الـ[illegible] الفضلات ! .

حقــاً ، ان الـرزق صورة وضّـاءةً تستحق الحب والعشق ، تلك التي **تظهـر** بالشكر . والاّ فان عشق الغافلين والضالين للرزق وتلهفهم له ما هو الاّ بهيمية حيوانية .

قس على هذا . . لتعلم مدى خسـارة أهـل الضـلالـة والغفلة ومـدى فداحة أمـرهـم ! إن اشـد الاحيـاء جوعـاً الى الـرزق والى انواعه انما هو الانسان ! فالحق سبحانه وتعالى قد خلق هذا الانسان مرآةً جامعة لجميع اسمائه الحسنى ، وأبدعه معجـزةً دالّـة على قدرته المطلقة . فهو يملك اجهزة يتمكن بها تثمين وتقدير جميع مدّخـرات خزائن رحمتـه الـواسعـة ومعـرفتهـا . . وخلقه على صورة خليفة الارض الـذي يملك من الأجهـزة الحسـاسـة بحيث تتمكن من قيـاس أدق دقـائق تجليات الاسمـاء الحسنى فلأجـل كل هذا فقـد اودع سبحـانـه في هذا الانسان فاقةً لاحدّ لهـا ، وجعله محتـاجـاً الى انواع لا تحد من الرزق الماديِ والمعنوي . وما الوسيلة التي تمكنّ الانسـانَ من العـروج بهـا الى اسمى مقـام وهـو مقام «**احسن تقويم**» - ضمن ما يملكه من الجامعية ـ الاّ الشكر .

فاذا انعدم الشكر يتردى الانسان الى اسفل سافلين ويكون مرتكباً ظلماً عظيماً .

الخـلاصــة : ان الشكـر هو اعظم اسـاس من الاسس الاربعـة التي يستنـد اليها سالك اسمى طريق واعلاه اَلاّ وهو طريق العبودية والحب لله تعالى والمحبوبية .

وقد عُبرّ عن تلك الاسس الأربعة بـ :

«دَر طريقى عجزى مندي لازم آمند جار جز

عجزِ مطلق فقرِ مطلق شوقِ مطلق شكرِ مطلق أي عزيز !» .

أي : ايها العزيز ، يا صاحبَ العجز ، إعلم ان عليك ان تعمل باربعة اشياء :

العجز المطلق ، الفقر المطلق ، الشوق المطلق ، الشكر المطلق . .

اللّهم اجعلنا من الشاكرين برحمتك يا ارحم الراحمين

(سُبحانَكَ لا عِلمَ لنا اِلّا ما علّمتَنا إنَّك انتَ العليم الحكيم)

اللهم صلِّ وسلم على سيدنا محمدٍ سيد الشاكرين والحامدين وعلى آله وصحبه اجمعين .

(وآخرُ دَعواهم اَن الحمدُ لله ربِّ العالمين) .

الحمد لله على نعمة الايمان

[هذا البحث يخص «الحمد لله» سنبين فيه تسع فوائد من نعم الايمان وانواره التي لا تنتهي والتي تجعلنا في « حمد » دائم] .

النقطة الاولى : -

لابد من التنبيه الى ملاحظتين مهمتين : -

(١) ان الفلسفة المادية «أو التفكير المادي» ليست في الواقع سوى نظارة سوداء يرى الانسان بها الاشياء جميعاً قبيحة مخيفة .

اما حقيقة الايمان ، فهي نظارة شفافة نورانية براقة يرى الانسان بها جميع الاشياء والامور مؤنسة وجميلة .

والانســان يتحسس ويــرى كل ما حولـه من احـوال ومخلوقـات من
الجهات كافة حسب استعماله لتلك النظارتين .

(٢) ان الانســان بفطـرتـه اجتمـاعي ، فله علاقـات مع جميع المخلوقات اخذاً وعطــاءاً ، كلامـاً ، واتصــالاً ، ومجـاورة ، مع كل ما يحيـط به سواء أكـان بصورة مباشرة أو غير مباشرة ، لذا أصبحت له ست جهات يرتبط بها وهي :

اليمين واليســار «أي المـاضي والمستقبـل» . والخلف والامـام «أي

المبدأ والمصير» . والتحت والفوق «أي الارض والسماء» .

(جهة اليمين) : -

وهي جهة الماضي ، فالمنظار المادي يرينا : ان ممالك الماضي الغابرة قد انهدّت أركانُها وهُدّمت عروشُها ، وان الآباء والاجداد قد فنوا من الوجود ، فلم يبق - في نظـره - من هذه الجهـة الاّ ظلام موحش رهيب ، وكأنهـا مقبـرة كبيرة واسعة ، ومدافن منتشرة خربة . . . ولاشك ان الانسان بنظرته هذه سيكون في يأس ورعب دائمين .

ولكن عندما يأتي نور الايمان الانيس يبدد ذلك الظلام الموحش قائلا : نعم لقد دُمّرت الممالك حقاً ، وانها هُدمت وزالت من الوجود ، ولكن بدون خسائر في الارواح . فان ساكني تلك الممالك وموظفيها في حقيقة الأمر قد نُقلوا الى عالم نوراني خالد رائع الجمال . وما هذه القبور المبثوثة في أرجاء العالم التي نشاهدها هنا وهناك الا انفاق تحت الارض توصلنا الى ذلك العالم الرحب .

فينبثق من هذا الايمان سرور وافراح واطمئنان وانشراح ، وفي كل منها نِعَمٌ عظيمة تستوجب على الانسان ان يردد الوف المرات «الحمد لله . . . الحمد لله . . . » .

(جهة اليسار) : ـ

ونعني بهذا المستقبل ان المستقبل في النظر المادي ينتهي بـ (الموت) وحفرة القبر المظلم المخيف ، فهو فاغر فاه ليلقمنا في جوفه ، وثمة عقارب وحيات تنتظرنا لتتغذى وتتعشى بجيف أجسادنا . . هذه هي نظرة المحروم من نعمة الايمان . . فيا لها من نظرة قبيحة .

أما المستقبل المنوَّر بنور الايمان عند المؤمن فهو : رياض مزينة تتهيأ ، وضيافات رحمانية تمتد ، تحوي أشهى لذائذ المأكولات الملونة ، واطيب نفائس المشروبات المتنوعة ، اعدها الله سبحانه وتعالى للبشر ، بفضله وكرمه ، وهو الخلاق الرحيم ، مما يدفعنا الى أن نكرر منشدين الوف المرات «الحمد لله» على نعمة الايمان .

(جهة الفوق) : ـ

السماء ؛ هب أن أحداً ينظر اليها بمنظار الماديين الجفاة : فسيرى انها سماء مملوءة بملايين النجوم والكواكب تسبح في هذا الفضاء الواسع وتجرى بسرعة هائلة ، وتتحرك بحركات مختلفة ، ولكن بدون هدف وقصد !! وبدون منظّم ومدبّر ـ كما يظنون ـ مما يقذف في القلب الرعب والخوف ، فيستوحش من النظر اليها ، ولا يجد فيها أنساً ولا حباً . .

الا ان النظرة الايمانية تجعل هذه القناديل المضيئة والمصابيح المتدلية المتبسمة لنا في سمائنا ، والسابحة بسرعة رائعة رشيقة ومنتظمة ، تحت رعايةِ وتدبيرِ عليمٍ حكيم . . فيدخل الأنس والمحبة في قلوبنا بدلاً من الخوف والوحشة . **من أجل ذلك فلو سبّحنا بـ «الحمد لله» آلاف المرات لكانت اذن قليلة امام نعمة الايمان الذي يرينا السماء على هذه الصورة المؤنسة .**

(جهة التحت) : -

أي الارض ؛ ان الذي ينظر الى الارض بعين الماديين وتصورهم يرى : ان الكرة الارضية وليدة الصدفة فحسب ، وان حبلَها على غاربها ، وان أمرها ليس بيدها أو بيد أحد ، تدور حول الشمس بلا هدف وبلا غاية ، فهي كسفينة حائرة في خضم البحر تسير بلا ربّان . وعندئذ يأخذه الدوار والدهشة والاضطراب ، فلا يفهم شيئاً . . وهنا يأتي نور الايمان يضيء كالسراج ، ويزيل بنوره تلك الحيرة والاضطراب جاعلا من الارض سفينة ربانية مسخرة ، مشحونة بانواع اللذائذ والمطعومات ، وقد سخرها الله سبحانه للانسان ـ والاحياء الآخرين ـ ليمتطي متنها ويسيّر بها في اطراف مملكته من أجل النزهة والسياحة والتجول . . . وبعدُ ، **الا تدفع هذه النعمة المنبعثة من الايمان المؤمن ان يردد ويردد دائماً «الحمد لله»** .

(جهة الأمام) : -

المصير ؛ ان الانسان المادي يرى ؛ ان جميع الاحياء من الانسان والحيوان يتوجهون مسرعين قافلة إثر قافلة الى هذا المصير ، حتى يغيبوا وراء ظلمات العدم الى غير رجعة ، وهو يعلم يقيناً انه سيأتي دوره يوماً ، وسيكون واحداً من هؤلاء في هذه الرحلة الخاطفة ، ويظل يلازمه هذا التفكير حتى يوصله الى القلق والهذيان والهذر .

أما المؤمن المتيقن فانه يرى : ان هذه الرحلة لن تنتهي الى العدم ، وان المجموعة البشرية هم كالبدو الرحل ينتقلون من مرعى الى مرعى آخر ، ومن دار الفناء الى دار البقاء ، ومن مكان الخدمة الى موضع أخذ الأجرة . . . ومن ميدان الزحمة والمشقة الى مقام الرحمة والمكافأة . **فينظر المؤمن بكل اطمئنان وامل الى مصيره ، وان كل ما يراه من اتعاب ونصب ومشقة في سفرته هذه ؛ من موت وقبر وما شابهه ، سينقلب عنده الى سعادة ولذة وأمان ، ذلك لأن الطريق التي تؤدي الى العالم النوراني تمر حتماً من «القبر »** .

وان السعادة الكبرى هي نتيجة المصائب الكبيرة الاليمة ، ولذلك ما نال سيدنا يوسف عليه السلام مرتبة عزيز مصر الا بعد السجن بافتراء امرأة العزيز عليه بعد ان القاه اخوته في الجب ، وكذلك الطفل لا ينال سعادة الحياة الا بعد ما يرى من مضايقات الرحم والولادة على باب الدنيا . فـ «الحمد لله» دائماً على ما فتحه لنا نور الايمان من ابواب السعادة على مصاريعها .

(جهة الخلف) : -

المبدأ ؛ ويتساءل المادي : ما هذه الاجيال المتكاثرة الغفيرة ، والاحياء المتدفقة ؟ ومن أين أتت ؟ . والى اين يذهبون ؟ ولماذا ؟

ولما كانت الغفلة المطبقة لا يمكنها ان تجيب على تساؤله ، فانه في حيرة وتردد ، ثم يتحول هذا التردد والحيرة الى ظلمات تغشى قلبه وروحه ، فيحس احساساً قوياً بقلق دائم وخوف مرعب . بينما يرى المؤمن بنور الايمان وبنعمته ان تلك الجهة هي مبدأ الانسان . . وان الله سبحانه وتعالى أرسله مكلفاً اياه بواجب في دار الامتحان هذه ، ولينظر ويشاهد ويطالع غرائب وعجائب معجزات القدرة الربانية المعروضة في معرض الكون ، وانه سبحانه سيردّه الى عالم المكافأة والجوائز حيث يكافئه بمقدار ما فهم ووعى في الارض من مطالعاته الكون ، ومن قيامه بواجبه المطلوب ؛ **فللّه در الايمان ، كم يورثنا من نعم لا تعد ولا تحصىٰ . . ! مما يدفع هذا الانسان ان يردد مراراً وتكراراً «الحمد لله» على نعمة الايمان بل جل النعم .**

فمن هذه الحقيقة ، وبهذا النوع من التفكير الايماني يكون «الحمد لله» على نعمة الايمان ، التي ازالت الظلمات عن الجهات الست ، هو الآخر نعمة عظيمة تستلزم «الحمد لله» ايضاً . اذ بـ «الحمد لله» يفهم درجة هذه النعمة ولذتها . فالحمد لله على الحمد لله في سلسلة لا تنتهي من «الحمد لله رب العالمين» .

(النقطة الثانية) : -

لابد من الحمد لله على نعمة الايمان التي نورت لنا الجهات الست . فكما ان الايمان بازالته ظلمات تلك الجهات ، نعمة عظيمة من ناحية «دفع البلايا» كذلك هو نعمة عظيمة أيضاً لتنويره تلك الجهات من ناحية «جلب المنافع» .

والانسان يستفيد من نعمة الايمان في علاقاته مع جميع المخلوقات وفي جميع تلك الجهات ومن ثم تأتي الآية الكريمة التي تملأ بصداها العذب ارجاء الكون : «**فَأَيْنَما تُوَلّوا فَثَمَّ وَجْهُ الله**» . . لتنور للمؤمن المكرم جميع الجهات اينما اتجه ، وتتسع الى ما لا نهاية له ، حتى كأن للمؤمن عمراً معنوياً طويلاً ممتداً من الخليقة الى نهاية العالم . اذ يستمر ذلك العمر المبارك من نور الحياة ، ومن ارتباطه بقافلة المؤمنين المنطلقة مع أول مسلم على وجه الأرض . .

وهكذا فان نور الايمان هذا يحوّل عالمه الضيق المحصور بين جداري الزمان والمكان الى عالم فسيح مريح ، ويجعل الأزمنة كلها بماضيها ومستقبلها زمناً حاضراً في قلبه وروحه بازالته البعد بينهما ، فيتحول هذا العالم الفسيح بيتاً له .

(النقطة الثالثة) : -

انها تقتضي «الحمد لله» على نعمة الايمان لاحتوائه على نقطتين : «**الاستناد والاستمداد**» . .

نعم ، نظراً لكثرة أعداء البشر أولاً ولمنتهى عجزة ثانياً ، فلابد أنه محتاج غاية الاحتياج الى نقطة استناد يلتجئ اليها دائماً دفعاً لشر اعدائه العديدين .

ونظراً لكثرة حاجاته ، وآماله ، مع شدة فقره ونواقصه ، فلابد له من نقطة استمداد لكي يُطَمئِن تلك الحاجات وتلك الآمال .

فيا أيها الانسان : اعلم ان نقطة استنادك في عملك وجهادك انما هي ايمانك بالله وحده . . واما نقطة استمداد روحك ووجدانك فهي بلاشك ايمانك بالآخرة . ومما لا ريب فيه ان الذي لا حظّ له من تلك النقطتين فانه يستوحش في

قلبه وروحه ، ويعذبه وجدانُه دائماً . .

اما الذي يستند الى «الايمان بالله» ويستمد من الثانية «الايمان باليوم الآخر» فانه لاشك يحس من اعماق قلبه وروحه بلذائذ معنوية ، وأنساً مسلياً ، واعتماداً وثيقاً يطمئن به وجدانه ويشرح فؤاده بسعادة لا يتصورها غيره ، وقد لا يحلم بها أصلاً .

(النقطة الرابعة) : -

ان الثمرة التي لا تُعرف شجرتها تنحصر لذتُها في تلك الثمرة فحسب ، ولذلك فان لذتها ستزول بمجرد أكلها تاركة وراءها اسفاً وحسرةً ، اما اذا عرفت للثمرة شجرتها ، فلا يمكن ان يحصل ذلك الألم والأسى بعد أكلها وفراقها ، ذلك لأن لها أصلاً باقياً معروفاً .

وهكذا فان نور الايمان يزيل الآلام الناتجة من زوال اللذائذ المشروعة وذلك باظهاره وجود امثالها ومجيئها من كنوز الرحمة الالهية ، ويؤمِّن دوام النعم ، وعدم تناقصها باظهار منابعها وخزائنها الربانية ، فيزيل ما يحصل من آلام الفراق باظهار لذة تجدد الامثال ، اذا التفكر بزوال اللذة يولد آلاماً كثيرة . فبنور الايمان تذوب تلك الآلام محيلا زوالها الى ثمرات جديدة من امثالها بلا انقطاع .

هذا وان اشد الحالات ضيقاً وهمّاً لروح الانسان ما يتولد من آلام الفراق وحسرات الوداع . فنور الايمان قد اودع الله ما يذهب تلك الآلام بدوام تجدد الامثال والوصال ولا ريب ان في تجدد اللذات لذائذ أخرى . وان التجدد بحد ذاته لذة . ولكل جديد لذة .

(النقطة الخامسة) : -

يصور لنا الايمان بنوره ، ما يتصوره الانسان في الموجودات ويتوهم انها أعداء له وانها اموات بلا حياة . . يصورها الايمان : انها احباب لنا ، واخوان

واحيـاء مؤنسين، وانهم عبـاد مسبحون ، ذاكرون . . فالغافل ينظر الى موجودات العالم كالاعداء ، وهوفي صراع معها دائماً ، فيستوحش من كل شيً ولا يتلفت الاّ ويرى نفسه بين غرباء يضمرون له العداء والشر . ذلك لأن علاقة الاخوة بين الازمنة الماضية والمستقبلة في نظر أهل الضلالة مقطوعة . فتتحول تلك الاخوة الى حاضر جزئي محـدود ، فاخـوتهم اِن دامت فهي كدقـائق معـدودة . أما اخوة الايمان فانها تمتد وتمتد ابتدءاً من مبدأ الماضي وانتهاءاً الى منتهى المستقبل .

واذ ترى الضـلالـة وأهلُهـا ان الكـائنات كلها اموات موحشة ، يرى الايمان وأهله انهـا مخلوقـات ذات روح وحيـاة . . . فيستأنس بهـا ، ويتجاوب معها بلغة المحبـة والايمـان والفطـرة ، ذلـك لان «كلٌّ قَدْ عَلِمَ صلاتَه وَتَسبيحَه» . «وإنْ مِنْ شَيْء اِلاّ يُسبّحُ بِحَمدِهِ» . ففي كل شيء حياة على قدّه وقدره ، فلا وحشة ولا خوف في نظر الايمان .

وبينمـا ترى الضـلالـة في الاحيـاء المنتشـرة والمخلوقات القائمة في الوجود انهم ضعفــاء عاجــزون لا يصلون الى مطـالبهم ، وليس لهم من يحميهم ويتـودد اليهم ، وليس لهم من صاحب كريم يتعهــدهم فهم كأيتــام يبكــون من عجـزهم وحـزنهم ويأسهم . . . يأتي نور الايمـان وقـد جعـل المـوجـودات كلهـا مخلوقات مأنـوسـة كالاحيـاء ، فينظر الى مَن منحهم الله الخلق والحياة ، بانهم عباد مكلفون وموظفون ذاكرون ومأمورون مسبّحون وليسوا ايتاماً أبداً .

(النقطة السادسة) : -

ان نور الايمـان يصـور الـدارين «الـدنيـا والآخـرة» اشبـه ما تكونان بسُفرتين ممـدودتين ومملؤتين نِعماً ، يستفيـد منهمـا المؤمن بيـد الايمـان وبحـواسـه الظـاهـرة والبـاطنة وبلطائفه المعنوية والروحية . بينما تتضاءل وتصغر دائرة استفادة الاحياء في نظر الضلالة فتنحصر في لذائذه المادية فقط ، والتي ينغّصها الزوال .

فنـور الايمـان يوسع ويوسع تلك الدائرة الى ما تحيط السماوات والارض بل

الدنيا والآخرة . . . حتى انه يرى الشمس سراجاً في بيته ، والقمر نوراً في داره ، فتكونان نعمة له ، ويحسبهما رفيقين له في وظيفته ، وأنيسين له في سفره . فلا شك ان دائرة نعمته اوسع من كل ما نتصوره . اذ كما ذكره القرآن الكريم المعجز **«وسَخَّر لَكُم الشمسَ والقَمر ، وسَخَّر لكم ما في البَرّ والبَحرِ»** فأشار ببلاغته الرائعة الى هذه الاحسانات الخارقة الناشئة من الايمان .

(النقطة السابعة) : -

ان المؤمن يعلم بنور الايمان ان اعظم نعمة في الوجود هي (معرفة الله) . . فهي نعمة لا تفوقها نعمة ، اذ هي منبع كل انواع النعم التي لا نهاية لها ، واجناس الاحسانات التي لا غاية لها ، واصناف العطايا التي لا حدّ لها . . . فيلزم الحمد بعدد ذرات العالم على نعم الايمان هذه لأن «أل» الاستغراق في «الحمد» تتضمن جميع (النعم) التي تستوجب الحمد . . . منها نعمة «انه رحمن» التي تتضمن نعماً بعدد ما تتعلق به الرحمة بذوى الحياة ، فالانسان له علاقة بجميع الاحياء وتسعد فطرته بسعادتهم وتتألم بآلامهم ، فالنعمة للفرد هي نعمة للناس جميعاً . . . ومنها نعمة «انه رحيم» التي تتضمن نعماً بعدد الاطفال الذين يتنعمون بعطف امهاتهم والتي تستوجب الحمد والثناء . . . نعم فكما ان لكل من له فطرة سليمة يتأثر ويتألم ببكاء طفل يتيم ، كذلك لابد انه يتنعم ويتذوق ويتلذذ برحمة الامهات لاطفالهن . . . فما هذه الاذواق الآ نعمة عظيمة تستلزم الحمد والشكر . . . ومنها نعمة «انه حكيم» فهي نعمة تستوجب الحمد والشكر بعدد افراد وانواع الحكمة المندمجة في جميع الكائنات والكون . اذ كما أن نفس الانسان تتنعم بالانوار الرحمانية ، وقلبه بالتجليات الرحيمية ، كذلك يتذوق عقله باللطائف الحكيمية .

فالحمد لله ملء الفم بالقلب والنفس والعقل . . وكذلك نحمده حمداً يملأ صداه الفضاء على نعمة الحفظ اي «انه الحفيظ» لان دوام النعمة اعظم من النعمة نفسها . . . وبقاء اللذة ألذّ من اللذة نفسها . . . والخلود في الجنة نعمة تفوق الجنة نفسها .

فنعمـة معـرفتنـا انه (الحفيظ) سبحانه وتعالى تتضمن نعماً اكثر وازيد واعلى من جميـع النعم المـوجودة في الكائنات . . . وهكذا قِس على اسم : الرحمن ، الـرحيم ، الحكيم ، الحفيـظ . سائـر اسمـائـه الحسنى ، اذ أن في كل اسم من اسمائه نِعماً لا نهاية لها تستوجب حمداً لا نهاية له .

ومنهـا نعمـة (الاسـلام) و (القـرآن الكـريم) الذي فجّر لنا منابع جميع انواع النعم المادية والمعنوية مما يستلزم حمداً لا متناهياً .

ومنهـا نعمـة (محمـد) ﷺ ، التي تستوجب حمداً لا نهاية له ، اذ هو الوسيلة لنعمـة الايمـان ، وفتـح كنـوز النِعَم كلها ، فهو نعمة تظل البشرية مَدينة له بالحمد والثناء الى الابد .

(النقطة الثامنة) : -

الحمد لله الذي يحمد له ويثنى عليه هذا الكتاب الكبير المسمى بـ «الكون» ومفسّره الذي هو (القرآن الكريم) باظهار اوصاف جماله وكماله .

فكتـاب الكـون هذا بجميع ابوابه وفصوله ، وبجميع صحائفه وما تحويه من سطـور وبجميـع كلمـاتـه وحـروفها كلّ بقدر نسبته ، من اصغر نقش الى اعظمه ، يحمـده سبحـانـه وتعـالىٰ ، ويسبّحه باظهاره اوصاف جلالِ قائلهِ الاحد الصمد . وكـل حرف فيـه يثنى باظهـار انوار اوصاف جمال كاتبه الرحمن الرحيم . وكل ما في الكون من نقاط ونقوش هي مرايا لتجليّات اشعة اسماء مَن له الاسماء الحسنى جل جلاله ولا اله غيره .

(النقطة التاسعة) : -

الحمد ـ من الله بالله على الله ـ لله ، بعدد ضرب الكائنات من اول الدنيا الى آخر الخِلقة ، في عاشرات دقائق الازمنة ، من الازل الى الأبد .

الحمـد لله على نعمـة القرآن والايمان عليّ وعلى اخواني بعدد ضرب ذرات وجودي في عاشرات دقائق عمري في الدنيا وبقائي في الآخرة .

«سُبحانَكَ لا عِلمَ لنا إلّا ما عَلّمْتَنا إنك أنتَ العليمُ الحكيمُ» .

الحمدُ لله الذي هَدانا لهذا وما كُنّا لِنهتَديَ لَو لا أنْ هدانا اللهُ لقد جاءت رسلُ ربِّنا بالحق .

اللهم صلّ على سيـدنـا محمـد بعـدد حسنـات امتـه وعلى آله وصحبه وسلم آمين والحمد لله رب العالمين .

انت قلادة النِعَم

[من المثنوي العربي النوري] (اعلم) : انه جئ بك من العدم الىٰ الوجود ، ثم رقّاك موجِدُك من أدنىٰ أطوار الوجود حتىٰ أوصلك بإنعامه الىٰ صورة الانسان المسلم . فما تخلّل بينك وبين مبدأ حركتك من المنازل الكثيرة المتعددة كلٌ منها نعمةٌ عليك ، وفيك ثمرة وصبغة من كل واحد . فصرتَ كقلادةٍ منظّمة ، وعنقودٍ نضيد بحباتِ النِعَم . . وسنبلة منضّدة من الرآس الىٰ القدم ، كأنك فهرستة لطبقات نِعَمِهِ تعالىٰ ؛ ولأن الوجود يقتضي علّة ، والعدم لا يقتضي . .كما تقرر في العقول . تُسأل في كل منزلٍ في مراتب الوجود - من الذرة الىٰ العدم - كيف وصلت الىٰ هذا ؟ وبِمَ إستحققتَها وبـ «هل شكرتَ» ؟ ولا يسأل مَن له مسكة عقل عن حجرٍ لماذا ما صار شجراً ، وعن شجرة لماذا ما صارت انساناً ! . . .

فيا أيها السعيد المسكين المغرور ! أنت نقطة في وسط سلسلة الموجودات ، فعليك نِعمٌ بعدد ما تحتك الىٰ العدم الصرف ، وانت مسؤل عن شكرها . وأما ما فوقك فليس لك ولا لأحد يسأل لماذا ما وصلت الىٰ أعلىٰ مما أنت فيه ، كما لاحقَّ للذرة ان تقول : (أي واه) لِمَ ما صرتُ شمساً ، ولا النحلة ان تقول لصانعها : هلا خلقتني نخلة مثمرة . . اذ ما تحتك وقوعات ، وما فوقك عدمات امكانات شبيهة الممتنعات . .



ايها الانسان المسرف الظالم الوسخ ، اعلم ان الاقتصاد والطهر والعدالة سنن آلهية جارية في الكون ، ودساتير آلهية شاملة تدور رحىٰ الموجودات عليها لا يلفت منها شئ الاّ انت ايها الشقي ، وانت بمخالفتك الموجودات كلها في سيرها وفق هذه السنن الشاملة تلقى النفرةَ منها والغضب عليك وانت تستحقها ، فعلامَ تستند وتثير غضب الموجودات كلها عليك فتقترف الظلم والاسراف ولا تكترث بالموازنة والنظافة ؟!

ان الحكمة العامة المهيمنة في الكون والتي هي تجلٍ اعظم لإسم الله «الحكيم» انما تدور حول محور الإقتصاد وعدم الاسراف ، بل تأمر بالاقتصاد .



المؤلف في سطور

- ولد سعيد النورسي في قرية «نورس» القريبة من بحيرة «وان» شرقي تركيا سنة **١٢٩٣** هـ من ابوين صالحين يضرب بهما المثل في الورع والتقوى .
- سطعت شخصيته ببوارق النبوغ والذكاء منذ حداثة سنّه ، وتلقى العلوم الاسلامية على أشهر علماء عصره ، وتبحر في هذه العلوم بجهده الشخصي ، ونال اجازته العالِمية وهو ابن اربع عشرة سنة .
- شغفته العلوم الحديثة واستأثرت باهتمامه فانكب على دراستها منذ سنة **١٨٩٣** م في (وان) فدرس الرياضيات والفلك والكيمياء والفيزياء والجيلولوجيا . . الخ والّف في البعض منها .
- اشتهر وذاع صيته حتى عرف بـ «سعيد المشهور» و «بديع الزمان» لذكائه الخارق ونبوغه المحير .
- نظّم من بعض طلابه والمتطوعين فرق «الانصار» عند اشتعال الحرب العالمية الاولى وعين قائداً عاماً لها ودخل معارك عديدة ضد القوات الروسية المعتدية أثارت اعجاب القادة العسكريين وثناءهم على بلائه الحسن .
- وفي ساحات الحرب وبين الخنادق الّف كتابه القيم في التفسير «اشارات الاعجاز في مظان الايجاز» وقد املاه على احد تلاميذته الملازمين له .
- سقط جريحاً في هذه الحرب واسر من قبل الروس وبقي في سيبريا مدة سنتين واربعة اشهر ولكنه استطاع الهرب من الأسر والعودة الى استانبول .

- ألف مجموعة من الرسائل باللغة العربية ثم جمعها في كتاب اسماه «المثنوى العربي النوري» على غرار «المثنوى» لجلال الدين الرومي .
- الف بالتركية «رسائل» في غيبيات الدين (كالآخرة والقيامة والحشر . . . الخ) واسماها (رسائل النور) واعتبر المثنوى أمّاً لهذه الرسائل . واستمر على التأليف الى سنة)١٩٥٠ .
- وافاه الاجل المحتوم في ٢٣ مارت ١٩٦٠ م الموافق لليلة القدر في رمضان سنة ١٣٧٩ في مدينة اورفه ، ودفن في جامع (اولوجامع) ثم اخرج جثمانه بامر السلطات ودفن في مكان مجهول .

فهرس

[جميع العناوين الفرعية المحصورة بين قوسين مزدوجين ليست من النص - المترجم -].

صدر للمؤلف

١ - رسالة الحشر
٢ - قطوف من ازاهير
٣ - الآية الكبرىٰ : شاهدات سائح يسأل الكون عن خالقه
٤ - زهرة النور : سلوة المرضىٰ وعز المبتلين
٥ - الملائكة وبقاء الروح والحياة الاخرىٰ

مطبعة الخلود بغداد ـ هاتف ٨٨٨٢٧٢٦